الفصل الثالث

الدولة الأتابكية فى بيت زنكى فى الشام
٥٢٢ـ٥٦٨ هـ/ ١١٢٨ـ١١٧٣ م

نتناول فى هذا الفصل كتابات ابن أبى طى عن الدولة الأتابكية فى «بيت زنكى فى الشام»[١]، فى عهد أتابك عماد الدين زنكى (٥٢١ـ٥٤١ هـ/ ١١٢٧ـ١١٤٦ م) وعهد ولده الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١ـ٥٦٩ هـ/ ١١٤٦ـ١١٧٤ م).

وقد اعتمدنا فى جمع كتابات ابن أبى طى عن هذه الدولة على اثنين من مؤلفاته:

أولا: كتابه الذى أرخ فيه لسيرة السلطان صلاح الدين، وقد أفادنا هذا الكتاب فى معظم أحداث الفصل، حيث تناول فيه ابن أبى طى الكثير من الأحداث الموضحة لتاريخ الدولة الأتابكية، ويرجع ذلك فى رأينا إلى ارتباط نشأة وتطور صلاح الدين وأسرته الوثيق بملوك الدولة الأتابكية[٢]. وقد وجدنا عدة صفحات من هذا الكتاب ضمن اثنين من مؤلفات المؤرخ «أبى شامة» وهما: «الروضتين»، و«عيون الروضتين» فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وقد أطلق أبو شامة على كتاب ابن أبى طى هذا اسم «السيرة الصلاحية»[٣].

ثانيا: كتاب معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء وذوى الرتب[٤]، وهذا الكتاب كما

---

(١) تعددت الدول التي عرفت باسم الأتابكة : ومنها أتابكية « دمشق » ، وكان أهمها التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل والجزيرة وحلب (حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤، ص ٦١ـ٦٢) .

(٢) سوف نذكر كتابات ابن أبي طي عن العلاقة بين الأسرة الأيوبية والدولة الاتابكية في الفصل القادم.

(٣) الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٩ ؛ ق ٢ ، ص ٤١٥ .

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٧٦ .

يبدو من اسمه كتابا عاما اهتم فيه ابن أبى طى بالتأريخ للعديد من الملوك والخلفاء، ولهذا فقد كان لتاريخ الدولة الأتابكية فى عهد عماد الدين زنكى وعهد الملك العادل نور الدين محمود نصيبا من كتاباته، وقد اعتمد **المؤرخ ابن الفرات** على هذا الكتاب وكان أحد مصادر كتابه تاريخ الدول والملوك، وأفادنا فى المجلدات الثلاثة الأولى - والتى لا تزال مخطوطة - فى دراسة التاريخ السياسى للدولة فى **عهد عماد الدين زنكى**، من ناحية توسعات على الصعيد الإسلامى، وأيضا علاقاته مع القوى الصليبية، وفى دراسة بعض الجوانب الحضارية على الصعيدين الاجتماعى والمعمارى، وأفادتنا أيضا تلك المجلدات فى دراسة بعض الجوانب الحضارية فى **عهد نور الدين محمود**، فعلى الصعيد المذهبى تناولت تفاصيل مهمة عن علاقته مع الشيعة فى حلب، كما أمدنا المجلد الرابع المطبوع من الكتاب ببعض الأحداث الموضحة لجانب من التاريخ السياسى والحضارى فى عهده.

أولا: عهد أتابك عماد الدين زنكي
(٥٢١-٥٤١ هـ/ ١١٢٧-١١٤٦ م)

حفل تاريخ الدولة الأتابكية فى عهد **أتابك عماد** الدين زنكى بالكثير من الأحداث التى توضح التاريخ السياسى والحضارى فى عهده، ومع ذلك لم يصل إلينا من كتابات ابن أبى طى سوى جزء ضئيل من حجم تاريخه الكبير. فعلى الصعيد السياسى كان تاريخه حافلا بالكثير من الفتوحات والانتصارات الصليبية والإسلامية، وقد تناولت كتابات ابن أبى طى جانبا من علاقاته مع بعض القوى الصليبية، ومن ذلك: علاقته مع: إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، والإمبراطورية البيزنطية. أما بالنسبة لتوسعاته الإسلامية، فقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى أحداث سيطرته على حلب وبعلبك، وأيضا المحاولتين اللتين قام بهما لحصار دمشق وقلعة جعبر. كما أمدنا ابن أبى طى ببعض الأحداث التى توضح الجوانب الحضارية فى عهد زنكى، فعلى الصعيد الاجتماعى عرض لأحداث زواجه ثم طلاقه من زمرد خاتون بنت الملك رضوان بن تتش، وعلى الصعيد المعمارى أورد ابن أبى طى أحد

النماذج التى تشير إلى اهتمامه بعمارة الميادين فى حلب، كما أوضح أيضا موقف زنكى من ارتفاع وبناء المنازل فى حلب.

علاقات زنكى مع القوى الصليبية:

١ - علاقة زنكى مع إمارة الرها الصليبية:

نجح عماد الدين زنكى فى عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م فى استرداد إمارة الرها الصليبية، وهى أول إمارة صليبية تعود إلى سيطرة المسلمين، وكان زنكى بعد ولايته الموصل فى عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م، قد عقد مع أمير الرها «جوسلين دى كورتناي» (٥١٣ - ٥٢٦ هـ/ ١١١٩ - ١١٣١ م) هدنة لمدة يسيرة حتى يتفرغ لضم العديد من البلاد الإسلامية إلى دولته[١].

ثم بدأ عماد الدين زنكى فى توجيه غارته على الرها، وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى رواية واحدة فقط من تاريخ العلاقات بينهما، وهى تعد من السطور الأولى فى سجل كفاح زنكى مع إمارة الرها، فذكر قيام زنكى بفتح أحد القلاع التابعة لها فى عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م، وورد هذا الخبر أيضا فى كتابات ابن العديم[٢].

قال ابن أبى طى: «وفيها فتح الأمير عماد الدين أتابك زنكى «قلعة السّن»[٣]، ورعى

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٣٢٥؛ ج ٩، ص ٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ علية الجنزوري: إمارة الرها، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، ٣١٤.

(٢) زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٤٤. وانظر أيضا: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٤٠.

(٣) السنّ: قلعة بالجزيرة قرب سميساط، وهي تعرف «بسن ابن عُطير»، وقيل أيضا: «سن ابن عطية». وهي من البلاد الواقعة غرب نهر الفرات التابعة لإمارة الرها، وكانت قد سقطت في أيدى الصليبيين في عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م، وقتلوا بها «منيع بن عطير النميري». (العظيمي: تاريخه، ص ٣٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٦٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٤٣).

زرع الرها»[١]. ولعل هذه العبارة الأخيرة تعنى ما ذكره ابن واصل عن أعمال النهب التى قامت بها قوات زنكى عقب سيطرته على القلعة[٢].

٢ - علاقة زنكى مع إمارة أنطاكية الصليبية:

كانت مدينة حلب أكثر المناطق الإسلامية التى تصدت لإمارة انطاكية، حيث كانت مطمعا للإمارة لوقوعها بين الرها وأنطاكية[٣]، وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى بعض الغزوات التى توضح جانبا من تاريخ العلاقات بين الدولة الأتابكية فى حلب وأنطاكية، فبالنسبة لعهد عماد الدين زنكى، وجدنا من كتاباته ما أورده فقط عن نتائج الغارة التى قام بها الأمير «سوار»[٤] - نائب زنكى فى حلب - على «اللاذقية وجبلة» فى رجب عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م، وقت وصول الأمير «ريموند دى بواتييه»[٥]

Raymond de potier لتولى مقاليد الحكم فى إمارة أنطاكية[٦].

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٣) حسين عطية : إمارة انطاكية ، ص ١٢٦ .

(٤) هو سوار بن أيتكين سيف الدولة : عمل أولا مع « تاج الملوك بوري » أمير دمشق ، ثم تركه في عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ، وانضم إلي عماد الدين زنكي ، فأكرمه وأجرى له الإقطاعات الكثيرة ، ثم ولاه حلب وأعمالها ، واعتمد عليه عماد الدين زنكي زنكي في كثير من حروبه مع الصليبيين ، ويقال أنه كان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور وله مواقف ظهرت فيها شجاعته ، وصارت له هيبة في قلوب الصليبيين . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ٢٤٥) .

(٥) ريموند دي بواتيه : تولي الحكم في إمارة إنطاكية بعد زواجه من الأميرة « كونستانس » وريثة عرش إنطاكية في إبريل عام ١١٣٦ م رجب ٥٣٠ هـ ، واستمر في حكمها حتى قتل في إحدى المعارك مع نور الدين محمود في عام ١١٤٩ م / ٥٤٤ هـ ، وسوف نوضح تفاصيل هذه المعركة في الصفحات القادمة . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤ ؛ حسين عطية : إمارة انطاكية ، ص ١٤٦) .

(٦) حسين عطية : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

وقد أمدنا ابن أبى طى بوصف مهم لأحوال الأسرى الصليبيين الذين أسروا فى هذه «الغارة»[١] منذ وصولهم إلى حلب، وقد اعتمد فى هذا الوصف على رواية والده الذى كان معاصرا لتلك الأحداث، وهذا يضفى على روايته أهمية كبيرة، فقال: «حدثنى أبى قال: وصلت هذه الغنيمة إلى حلب فى أواخر شعبان، وكنا على الأسوار والأبواب مغلقة لأن الأمير سوار كان إذا خرج من حلب غلقت أبوابها خوفا من غارة الفرنج، فشاهدنا الغنيمة وقد سدت الفضا وبلغ ثمن الأسير دينار ونصف دينار، ثم خرج التركمان بأكثر الأسارى إلى ديار بكر والموصل وبلاد الجزيرة، وكانت هذه السنة (مخصبة)»[٢].

٣ - علاقة زنكى مع الإمبراطورية البيزنطية:

كان الإمبراطور البيزنطى «يوحنا الثاني» Jean II (١١١٨ - ١١٤٣ م/ ٥١٢ - ٥٣٨ هـ) قد قاد جيشا كبيرا وخرج لغزو بلاد الشام فى عام ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ - ١١٣٧ م ونجحت قواته فى الاستيلاء على مدينة «نيقية»[٣]، وبعض الثغور الشامية، وحاصرت إمارة إنطاكية الصليبية لفترة، ثم انتقلت قواته وصارت بالقرب من حلب وإزاء ذلك استعد عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب للتصدى لهذا الغزو.

وكان الإمبراطور يهدف من هذا الغزو بسط سيطرته على إمارة أنطاكية الصليبية، ودفعه إلى ذلك ولاية الأمير ريموند دى بواتييه عرش الإمارة دون مشورته وأذنه، حيث كان يعتبر أنطاكية ملكا له طبقا لاتفاق الدولة البيزنطية مع الأمراء الأوائل منذ الحملة الصليبية الأولى، وكان ينص على أن يعيد الصليبيون إلى الإمبراطورية جميع القلاع والمدن التى استولوا عليها أثناء الحملة، كما نص على أن تظل فى أيديهم لحراستها حتى يأتى

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الغارة انظر: (ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٠٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ٢، ج ٣، ورقة ٧٨.

(٣) نيقيَة: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وكسر القاف، وياء خفيفة. من أعمال اصطنبول على البر الشرقي. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣٣).

الإمبراطور ويتسلمها، ولم ينفذ هذا الاتفاق بعد ذلك لأن الإمبراطورية البيزنطية كانت ـ كما ذكر وليم الصورى ـ أول حانث فيما قطع على نفسه فعد الصليبيون أنفسهم فى حل مما تعاهدوا عليه معها[١].

وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى بعض أحداث الغزو البيزنطى، وكان أولها غزو «نيقية»، وروايته عن هذا الغزو ذات أهمية كبيرة، لأنه اعتمد على أحد شهود العيان من أهل نيقية، والذى كان قد تحدث مع والد ابن أبى طى فى حلب، ووصف له الغزو وأسباب سقوط المدينة، فقال: «حدثنى أبى قال: حدثنى رجل من أهل نيقية وصل إلى حلب قال: زحفوا إلينا فكنا نقتلهم، وهم يقبضون علينا كالجراد، حتى ضجرنا وسئمنا وكللنا من القتل فلم يكن لنا إلا تسليم المكان»[٢].

ثم عرض ابن أبى طى أحداث الغزو البيزنطى لبعض الثغور الشامية، كما ذكر مقدمة تاريخية توضح الجهود التى بذلت من قبل لتعمير أحد هذه الثغور، وتطابقت روايته عن هذه الأحداث مع ابن القلانسى[٣]، مما يؤكد أنه كان مصدر كتاباته فى هذه الأحداث، فقال: «ووصل ملك الروم إلى الثغور ونازل «أذنة»[٤]، و«المصيصة»، وهما «لابن ليون الأرمني»[٥] فحصرها وملكها ثم نازل «عين زربة»[٦]، وكان أمير المؤمنين «المأمون

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ٢، ج ٣، ورقة ٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(٤) أذَنَة: بفتح أوله وثانيه، من الثغور الشامية، تقع بالقرب من ثغر «المصيصة» (الواقعة على نهر جيحان بين أنطاكية والدولة البيزنطية). (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٣٢ ـ ١٣٣، ج٥، ص ١٤٥).

(٥) هو ليون الثاني Lion II: ملك أرمينية في تلك السنة. (ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٧٦، هامش (١)).

(٦) عينُ زَرْبَي: بفتح الزاي، وسكون الراء، من الثغور الشامية، وتقع أيضا بالقرب من المصيصة. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٧).

العاسي»[١] عمرها حين دخل الشام وأنفق على عمارتها ماية وسبعين ألف ألف دينارا، وكان يعمل فيها كل يوم أربعون ألف فاعل سوى البناين والحدادين والنجارين، ولما نزل ملك الروم عين زربة ملكها عنوة وقتل جُل من كان فيها، ثم رحل وملك بعدها «تل حمدون» وحمل أهله إلى جزيرة قبرس،

وكان صاحبه ابن هيثم الأرمني»[٢].

واتجهت القوات البيزنطية بعد ذلك نحو إمارة أنطاكية وضربت حولها حصارا شديدا ووجدنا من كتابات ابن أبى طى موجزا لأحداث هذا الحصار اتفق فيه أيضا مع ابن القلانسى[٣]، فقال: «ثم عبر مينا «اسكندرونة»[٤]، ثم خرج إلى أنطاكية، ونزل عليها وضايق أهلها فى ذى القعدة وجرى بينه وبين صاحبها ريموند الفرنجى حرب عظيمة ثم اصطلحا»[٥].

ثم عرض ابن أبى طى مراحل سير القوات البيزنطية بعد أنطاكية، وانفرد بما ذكره عن هذه المراحل، فقال: «ورحل ونزل على «المالكية» فأقام عليها خمسة أيام، ووصلت الروم

---

(١) هو أبو عبد الله أبو العباس بن الرشيد : ولي الخلافة العباسية في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ ـ ٨١٤ م . واهتم ـ فضلا عن قيامه ببناء الثغور ـ بقيادة الحملات بنفسه لغزو الأراضي البيزنطية ، ففي عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م نجح في فتح عدة حصون منها حصن « قرة » ، وفي العام التالي توجه للغزو وفتح عدة حصون ، وكانت وفاته في عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م أثناء خروجه أيضا للغزو ، واستمرت فترة خلافته عشرين سنة وستة أشهر . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١؛ الكتبي : فوات الوفيات . ج ٢ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ ؛ السيوطي : الخلفاء ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧) .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ ؛ وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٥٨ .

(٤) إسكَنْدرُونة : مدينة تقع في شرقي أنطاكية علي ساحل البحر المتوسطَ ، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٨٢) .

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ .

إلى باب «حلب» وشاهدهم أهل المدينة من على الأسوار»[١].

وواصلت القوات البيزنطية سيرها بعد ذلك نحو منطقة الثغور، وعرض ابن أبى طى أحداث تلك المرحلة، وتطابقت روايته مع ابن القلانسى[٢]، فقال: «ثم رحل عايدا إلى الدرب، فافتتح ما بقى فى يد ابن لاون الأرمنى من الحصون وشتا بها»[٣].

أما بالنسبة لموقف عماد الدين زنكى من هذا الغزو فقد انفرد ابن أبى طى بذكر استعداداته لمواجهته، فقال: «اتصل بأتابك زنكى رجوع ملك القسطنطينية ونزوله على «حصن بغراس»[٤] فأمر العساكر بالخروج وكاتب الأطراف، وخرج إلى جبل جوشن»[٥].

كما أرسل عماد الدين زنكى نائبه فى حلب، ونجح فى هزيمة بعض من القوات البيزنطية، وأورد ابن أبى طى هذه الأحداث واتفق فيها أيضا مع ابن القلانسى[٦]، فقال: «وأرسل على مقدمته الأمير «سوار» فظفر بشرذمة من الروم فأثخن فيهم القتل وأسر أكثرهم وعاد إلى حلب»[٧].

ثم صارت القوات البيزنطية على مقربة من حلب، فاتخذ الأمير «سوار» ـ نائب زنكى فى حلب ـ الاستعدادات اللازمة لمواجهة هذا الغزو، وقد أشار ابن القلانسى إلى تلك

---

(١) المصدر نفسه والورقة .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ .

(٤) بَغراس : مدينة تقع بالقرب من إنطاكية على بعد أربعة فراسخ منها ، وتقع على يمين القاصد إلى إنطاكية من جهة حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٦٧) .

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤١٢ ؛ وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٧) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ .

الاستعدادات[١]، وانفرد ابن أبى طى بذكر المزيد من التفاصيل حولها، وأشاد فى ختام روايته بالأمير سوار وجهوده فى الدفاع عن حلب، فقال: «ورحل ملك الروم إلى جهة «عزاز» وكان أتابك زنكى توجه إلى جهة الموصل، وبلغ ذلك «سوارا» شحنة حلب، فأخذ فى تحصين حلب وجمع الغلال واستعد للحصار، ونصب المنجنيقات على أسوار حلب وسلم «باب قنسرين»[٢] إلى «القاضى بن الخشاب»، و«باب أنطاكية»[٣] إلى ولده، و«باب العراق»[٤] جعله لنفسه، وقسم الحلبيين أقساما وفرق عليهم السلاح التام، ووضع التركمان فى (ظل) السور بين الخندق، و...، وأدخل نساءهم إلى حلب وكان سوار من أحزم الرجال وأشجعهم»[٥].

وكانت هذه الاستعدادات آخر ما وجدناه من كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع، وأيضا عن علاقات عماد الدين زنكى مع القوى الصليبية، وكما رأينا فقد انفرد ابن أبى طى بجانب من تلك الأحداث خاصة تلك التى تتعلق بتاريخ حلب، كما ظهر واضحا أن كتابات ابن القلانسى كانت من المصادر الأساسية التى اعتمد عليها.

توسعات زنكى على الصعيد الإسلامى:

اتسعت الدولة الأتابكية فى عهد عماد الدين زنكى، وتمكن من بسط سيطرته على

العديد من البلاد، كذلك قام بعدة محاولات لضم بعض البلاد ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، وقد وصل إلينا من كتابات ابن أبى طى بعضا من هذه التوسعات وكان

---

(١) المصدر السابق، ص ٤١٣. وانظر أيضا ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٢) باب قنسرين: سمي بذلك لأنه يتجه منه القاصد جهة قِنسْرين. (ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٦٩).

(٣) باب أنطاكية: سمي بذلك لأنه يتجه منه القاصد ناحية انطاكية. (المصدر نفسه، ص ٧٤-٧٥).

(٤) باب العراق: سمي بذلك لأنه يتجه منه القاصد جهة العراق، وهو يلي باب قنسرين من جهة الشرق (المصدر نفسه، ص ٧٠ - ٧١).

(٥) ابن الفرات: المصدر السابق، م ٢، ج ٣، ورقة ٩٤.

أولها:

حلب:

اهتم ابن أبى طى فى كتاباته عن هذا الموضوع بإبراز الدور الذى قام به أهل حلب مع عماد الدين زنكى لتيسير أمر ولايته لها، وأرجع سبب ذلك إلى تعلق أهل حلب به ومحبتهم له، لأنه كان قد ولد بها، وهذا السبب انفرد به ابن أبى طى، وكان «ابن الأثير» قد أشار فقط إلى أنهم خرجوا إليه واستبشروا به[١]. وقد يبدو للوهلة الأولى أن ابن أبى طى بالغ فى ذكر موقف أهل حلب، ولكننا لاحظنا من خلال كتابات ابن العديم أن أهل حلب كان لهم دور فى بعض الأحيان تجاه ولاة الأمور بها، فذكر فى أحداث عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م أنهم رفضوا ولاية الأمير «ختلغ أبه»[٢] لسوء سيرته، وولوا عليهم «بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار» حتى وصلت قوات زنكى[٣].

وقد تضمنت رواية ابن أبى طى أيضا وصفا لوصول عماد الدين زنكى إلى حلب، وتفاصيل القتال بينه وبين والى حلب السابق، فقال: «وصار الأمر بحلب إلى «الملك المنصور رئيس الإسلام ألب غازى..... طغرلبك عماد الدين أبو سعيد أتابك زنكى بن أقسنقر قسيم الدولة غلام ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي». وكان سار إلى حلب ونزل على «باب العراق» وغلق «ختلغ» الباب فى وجهه، وأراد قتاله، فاجتمع الحلبيون

(١) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٢٦ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢) خَتْلَغْ أبَه : كان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه قد أرسله إلي حلب في عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م حاملا توقيع منه بولاية « مسعود بن البرسقي » حلب ، فرفض والي حلب في ذلك الوقت المعروف « بتومان » ، فرجع ختلغ إلي الرحبة ، ثم ما لبث أن توفي مسعود بن البرسقي فعاد ختلغ إلي حلب وتسلمها من تومان في آخر جمادى الآخرة ، ولم تتم الأمور لختلغ في حلب لسوء سيرته ، ثم حاصر زنكي حلب ، وتمكن من السيطرة عليها في عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م ، وقام بقتل ختلغ بعد ولايته لها بأيام قلائل . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٣) .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

وفتحوا باب العراق لأتابك زنكى، وكان مولد أتابك بحلب، ولذلك مال إليه الحلبيون وأحبوه وفتحوا له الباب فدخل وملكوه حلب، وتحصن ختلغ فى القلعة، وأراد المصابرة فضعفت نفسه، وراسل أتابك وسلم إليه حلب»[١].

وتسلم عماد الدين زنكى قلعة حلب فى عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م، وحدد ابن أبى طى تاريخ تسلمه لها فى شهر المحرم، وذكر ابن العديم أنه صعد إلى القلعة فى جمادى الآخرة . ثم عرض ابن أبى طى موقف زنكى من والى حلب السابق الأمير «ختلغ»، واتفق معه ابن العديم فى ذلك[٢]، قال ابن أبى طى: «وكان تسلمه القلعة فى عشر المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وقبض على ختلغ وسلمه إلى «ابن بديع»[٣] فكحله بداره بعد عشرين يوما من ولاية أتابك»[٤].

وتناول ابن أبى طى فى رواية أخرى علاقة عماد الدين زنكى بأهل حلب بعد عدة سنوات من ولايته لها فى عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦ – ١١٣٧ م، وفى هذه الرواية انفرد ابن أبى طى بنقد موقف زنكى من العامة فى حلب، ولعله كان يهدف بطريق غير مباشر عقد مقارنة بين موقف أهل حلب منه عند ولايته حلب، وموقفه منهم الآن بعد أن حقق العديد من الانتصارات واتسعت دولته، فقال: «لما فتح أتابك زنكى «حصن بعرين»[٥] عاد إلى حلب،

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ؛ وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) هو فضائل بن صاعد بن بديع : كان رئيس حلب في ذلك الوقت . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٤٣) .

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٢ .

(٥) حصن بعرين : كان من أمنع الحصون التابعة للصليبيين ، وعرف في الكتب الصليبية باسم « قلعة مونتفراند » ، وهي تقع علي مرتفعات طرابلس . لمزيد من التفاصيل حول فتح عماد الدين زنكي لهذا الحصن انظر : (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٣٦ ـ ١٤٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ،ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨) .

وخرج الناس إلى لقايه، فأظهر من الكبر والعظمة ما بهر به العقول ومنعت العامة من النظر إليه ورموا بالسهام والبندق والعصي»[١].

ثم عرض ابن أبى طى أيضا فى نفس العام العلاقة بين عماد الدين زنكى وأمير ماردين، وانفرد بما أورده من تفاصيل العلاقة الودية بينهما، فقال: «وورد على أتابك زنكى رسول الأمير «حسام الدين تمرتاش بن يلغازى بن أرتق»، ومعه هدية عظيمة عرضت على أتابك زنكى بجبل جوشن كان فيهاماية حصان»[٢].

كما أخبر الرسول أيضا عماد الدين زنكى بآخر الفتوحات التى ضمها أمير ماردين إليه، واتفق ابن أبى طى فيما رواه من تفاصيل هذا الفتح مع ابن القلانسى[٣]، فقال: «وأخبر الرسول بأن الأمير حسام الدين فتح قلعة «الهتاخ»[٤] من بقية «الصور»[٥]، وما كان بقى فى أيديهم غيرها بعد البلاد الكثيرة والمعاقل الحصينة، وهذه القلعة على غاية من الحصانة والمنعة وكان أخذها بحيلة نصبها عليهم»[٦].

ومن البلاد الإسلامية التى نجح عماد الدين زنكى فى ضمها إلى دولته كانت مدينة:

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٢ . (وكان قد أورد هنا المعنى العام لرواية ابن أبي طي وليس صيغة النص كعادته في نقله عن ابن أبي طي) .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤١٣ .

(٤) الهَتّاخُ : بالفتح والتشديد ، قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين ، وكانت آخر البلاد التي تتبع « بني مروان » الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٦٢) .

(٥) الصوْرُ : بالفتح ثم السكون ، قلعة حصينة علي رأس جبل قرب ماردين . (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ، ص ٤٣٤) .

(٦) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٩٣ ـ ٩٤ .

بعلبك:

قام عماد الدين زنكى بحصار مدينة بعلبك فى ذى القعدة عام ٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م، وقد أوضح «ابن القلانسي» أنه أقام حولها حصارا شديدا، ولهذا لم تتمكن المدينة من الصمود طويلا فاستسلمت له، واستمرت المقاومة فى القلعة، ثم طلب من بها من القوات الأمان فأمنهم، وتسلم زنكى القلعة فى صفر عام ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م، ثم ما لبث أن رجع عن وعده معهم، وغدر بهم وأمر بصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل، ولهذا ساءت سيرته فى ذلك الوقت بين كثير من الناس بسبب هذا الفعل ونفروا منه[1].

وقد وصلنا من رواية ابن أبى طى عن هذا الموضوع بعض التفاصيل التى انفرد بذكرها، وأوضح فيها موقف عماد الدين زنكى تجاه الأمراء والقوات فى قلعة بعلبك، فأشار إلى أنه كان هناك سبب وراء نقض عهده معهم، وهو قيامهم بإفساد ما فى بعلبك من ذخائر، حتى لا تقع فى أيديه، ولهذا اعتبر زنكى هذا الفعل سببا لنقض عهده معهم وقبض عليهم، وهذا الإيضاح الذى ذكره ابن أبى طى نفى عن زنكى الاتهام الذى وجه

إليه بأنه لا يحترم عهوده، ولم يكن ابن أبى طى أول من ذكر هذا، ولكنه أضاف فيه بعض التفاصيل، حيث كان «ابن القلانسي» قد ألمح إلى ما ذكره ابن أبى طى عن ضيق زنكى بسبب فقده شيئا مهما، فقال: « فلما حصلت فى ملكه، نكث عهده، ونقض أمانه لحنق أسره، وغيظ على من كان فيها أكنه»[2]، وفى عبارة ابن القلانسى إشارة إلى ضياع شئ مهم من زنكى وسبب له ضيق كبير، وقد يكون هذا الشئ هو الذخائر التى ذكرها ابن أبى

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٨، ص٣٦٤ ـ٣٦٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٢٧٢ـ٢٧٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ٨٦ ؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ، ص ١٤؛ النويرى : المصدر السابق، ج ٢٧ ، ص ١٣٧ ؛ ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى، ج ٢ ، ص ٤ .

(٢) المصدر السابق، ص٤٢٣ .

طى فى روايته.

قال ابن أبى طى: «وأتفق أن الأمراء لما نزلوا من بعلبك، افسدوا ذخائرها، فقبض عليهم أتابك زنكى وقتل بعضهم وصلبهم»[١].

كما أضاف ابن أبى طى فى نفس النص دليلا آخر برهن فيه أن زنكى لم يكن كما أشيع عنه بهذا الحد من القسوة مع الأمراء والقوات فى قلعة بعلبك، وعلى العكس أظهرت روايته أنه كان رحيما مع بعضهم، عندما استعطفه أحد كبار السن منهم وطلب منه أن يصلبه قبل ولده، فأمر بالعفو عن الرجل الكبير وعن ولده وعلى من بقى من القوات، فقال: «وكان ولّى قتلهم» صلاح الدين محمد بن أيوب {الياغبسانى[٢]}

[٣] «فحكى أنه أحضر فى جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولد «أمْرَد»[٤] كأنه فلقة قمر، فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك ألا صلبتنى قبل ولدى لئلا أراه يعالج سكرات الموت. فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقى من الجماعة»[٥]

ومن البلاد الإسلامية التى حاول عماد الدين زنكى ضمها إلى دولته، ولكنه لم يوفق فى ذلك كانت مدينة:

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) في طبعة « دار الجيل » . « الناغبساني » . (المصدر نفسه ، ج ١، ص ٣٤) .

(٣) هو صلاح الدين محمد بن أيوب : كان من أكبر أمراء عماد الدين زنكي وعمل حاجبا له ، وولاه مدينة حماة ، وبعد وفاة زنكي في عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م انتقل إلى خدمة ولده نور الدين محمود . وقد اختلفت المصادر في كتابة نسبته فقيل : الباغيسياني واليغيساني والياغيسياني (ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص٣٥٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ، ج ٥ ، ص١٨٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١، ص٧٢) .

(٤) الأمرد : الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد . (الفيروزبادى : القاموس المحيط ، ج١ ، ص ٣٣٤) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ (طبعة دار الكتب المصرية) .

دمشق:

وهى من أهم مدن الشام، ولهذا اهتم زنكى ومن بعده ولده نور الدين محمود ببسط سيطرتهما عليها، وقد وجدنا من كتابات ابن أبى طى بعض الأحداث التى توضح العلاقة بين زنكى واثنين من ملوك دمشق فى عامى ٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م و ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م، وقبل دراسة هذه الكتابات نقدم نبذة عن طبيعة العلاقة بين زنكى وملوك دمشق

ظهرت أطماع زنكى فى دمشق والبلاد التابعة لها بصورة واضحة قبل عام ٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م، ولهذا لم يكن صادقا فى وعوده مع ملوك دمشق، ففى عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م، ترددت الرسل بينه وبين «تاج الملوك بوري» (٥٢٢ ـ ٥٢٦ هـ/ ١١٢٨ ـ ١١٣٢ م) واتفقا معا على الخروج للجهاد، وبعد وصول الجيش الدمشقى بقيادة «بهاء الدين سونج بن تاج الملوك» أمير حماة إلى معسكر عماد الدين زنكى قام بإلقاء القبض على الأمير سونج، كما أرسل جيشا استولى على حماة، ثم قرر زنكى فى عام ٥٢٨ هـ/ ١١٣٣ ـ ١١٣٤ م غزو دمشق، وساعده على ذلك اختلال أمر «شمس الملوك إسماعيل ابن بوري» (٥٢٦ ـ ٥٢٩ هـ/ ١١٣٢ ـ ١١٣٥) ملك دمشق فى ذلك الوقت، حيث راسله لتسليم دمشق إليه، فلم يقبل ولاة الأمور فى دمشق ما صار عليه شمس الملوك فقاموا بقتله، وولوا عليهم شهاب الدين محمود بن بورى (٥٢٩ ـ ٥٣٣ هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٨ م)، وعندئذ وصل زنكى إلى دمشق فى عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م، وبعد علمه بانتقال السلطة بها قام بحصار المدينة، ثم رفع حصاره عنها لمناعتها، ثم قام زنكى فى عام ٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م بمحاولة للاستيلاء على حمص التابعة لدمشق ولكنه لم يتمكن من ذلك[1].

وفى شهر شوال من هذا العام تقرر عقد الهدنة بين عماد الدين زنكى وشهاب الدين محمود بن بورى ملك دمشق، وقد أشار ابن القلانسى إلى هذا الموضوع، وكل ما ذكره عن

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ـ ٣٩٢ ، ٤٠٧ .

تفاصيل الهدنة هو أنها عقدت: «على قاعدة أحكمت»[١]، وأمدنا ابن أبى طى بتفاصيل هامة عن عقد الهدنة فى حلب انفرد بها، وهى تعكس نية زنكى غير الصادقة من هذه الهدنة، ولهذا انتقد ابن أبى طى سلوك زنكى فى ختام روايته.

قال ابن أبى طى: «وفى شوال وردت رسل «شهاب الدين» صاحب دمشق إلى حضرة أتابك بحلب، ومعهم قود وهدية عرضت عليه في«ميدان باب قنسرين»، وأديت لرسالة إليه، وكان مضمونها سؤال الهدنة وطلب الموادعة، فأجاب أتابك إلى ذلك، وانعقدت الهدنة بينهما، ولم (يجسر) الرسل يطلبون الإيمان من أتابك فأقاموا خمسة وعشرين يوما وخرجت لهم الخلع، وقيل لهم: ارحلوا، فقالوا: نريد أن يحلف المولى أتابك، فقال الحجاب: ما نتجاسر على مخاطبته بذلك، فضمن الرسول للخادم برنقش ماية دينار حتى يخاطب أتابك، فقال له: الرسول يطلب اليمين، فقال: أخرج

أنت واحلف لهم، فحلف لهم برنقش، وما قدر أحد على معاودته، وهذا من عظيم الجبرية وغاية الخرق»[٢].

وبعد أشهر قليلة من عقد هذه الهدنة، قام زنكى فى المحرم عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م بالاستيلاء على «حصن المجدل» التابع لدمشق، كما أطاعه أمير بانياس التابعة أيضا لدمشق، وفى نفس هذا العام فى رمضان لجأ زنكى لوسيلة أخرى لبسط سيطرته على دمشق، فتزوج من والدة شهاب الدين محمود بن بورى ملك دمشق، وبعد عام تقريبا قتل شهاب الدين محمود فى دمشق فى شوال عام ٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م، فحرضت والدته زنكى على الأخذ بثأره، فاتجه بقواته إليها فاستولى على بعلبك فى طريقه إليها ثم سار لحصار دمشق[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٢.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ٢، ج ٣، ورقة ٩٢.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٤١٣، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٩.

فوصل إلى منطقة «البقاع»[١] فى ربيع الأول عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وفور وصوله هناك قام بمراسلة ملك دمشق «جمال الدين محمد بن بوري» (٥٣٣ ـ ٥٣٤ هـ / ١١٣٨ ـ ١١٣٩ م)، بشأن تسليم المدينة وعرض عليه ما يختاره من بلاد عوضا عنها، فرفض جمال الدين عرضه، فقام زنكى بحصار دمشق، وكادت أن تسقط المدينة فى يده، ثم عاود زنكى مراسلة جمال الدين مرة ثانية، وعرض عليه فى هذه المرة مدينتى بعلبك وحمص وما يقترح معهما، فكاد جمال الدين أن يوافق لولا تحذير مستشاريه من غدر زنكى به مثلما فعل من قبل مع حامية القلعة فى بعلبك، فحاصر زنكى دمشق مرة أخرى[٢].

وقد وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع، إحدى المراسلات التى دارت بين عماد الدين زنكى وجمال الدين محمد بن بورى ملك دمشق، وفيها انفرد بتفاصيل المبادرة التى قام بها ملك دمشق عند وصول زنكى إلى البقاع، حيث أوضح ابن أبى طى أنه أرسل إليه هدية وطالبه بالعودة عن دمشق، وفى مقابل ذلك بذل له جمال الدين خمسين ألف دينار،كما تنازل له عن حمص، ولكن زنكى رفض قبول هذا العرض

قال ابن أبى طى: «ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق فنزل البقاع فوردت هدية صاحب دمشق، ويطلب العود، ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص.... فامتنع زنكى... ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه»[٣].

ونحن لا نستبعد ما ذكره ابن أبى طى عن المبادرة التى جاءت من جانب ملك دمشق تفاديا لوقوع القتال بين الطرفين، ولكننا لاحظنا أن ابن أبى طى لم يكن دقيقا فيما ذكره عن

---

(١) البقاع : جمع بقعة ، وهي موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق ، وهي أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٠) .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق . ج ٨ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، ٢٧٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٧ ؛ النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ١٣٨ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج١ ، ق ١ ، ص ٨٧ ؛ ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية ، ورقة ٧٦ .

عرض جمال الدين بن بورى بشأن تنازله عن مدينة حمص لزنكى، و يعتبر هذا خطأ كبير وقع فيه ابن أبى طى، لأن حمص كانت تابعة بالفعل لسيادة زنكى قبل عامين من هذه الأحداث فى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٨-٣٧ م[١]، بل كان زنكى قد عرض التنازل عنها فى مراسلاته مع جمال الدين بن بورى مثلما أوضح ابن القلانسى وغيره من المؤرخين فى بداية عرضنا لهذا الموضوع.

على أى حال واصل زنكى حصار دمشق، وفى أثناء هذا الحصار توفى ملك دمشق «جمال الدين بن بوري»، فاشتد زنكى فى حصاره للمدينة فقام معين الدين إنر، الذى كانت له السيطرة الفعلية فى دمشق، بالاستنجاد - كما ذكر ابن القلانسى[٢] - بمملكة بيت المقدس الصليبية، وخوفهم من خطورة استيلاء زنكى على دمشق، ووعدهم بمدينة بانياس مقابل تصديهم لزنكى، ونجح هذا المخطط بعد ذلك فى إبعاد زنكى عن دمشق.

وقد تناول أيضا ابن أبى طى تفاصيل تلك الأحداث، واتفق فى أغلب كتاباته مع ابن القلانسى، وبدأ كتاباته بالتغيير الذى حدث فى السلطة فى دمشق أثناء الحصار فقال: «توفى (جمال الدين) فى ثامن شعبان من هذه السنة، وأقام الأمير «معين الدين أنر» الأتابك مكان الملك جمال الدين محمد ولده «عضب الدولة فخر الدين أبا سعيد آبق - بعد الباء الموحدة قاف - بن جمال الدين محمد بن بوري»، وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين كما سيأتى ذكره، وحلف له الناس وقام بتدبير دولته الأمير معين الدين إنر المذكور»[٣].

ثم واصل ابن أبى طى أحداث حصار زنكى لدمشق، وانفرد بما ذكره عن موقف التجار بها من الحصار، فقال: «ولما بلغ الملك عماد الدين أتابك زنكى ذلك غضب وطمع

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤١٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٦٧ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ورقة ٢٧.

فى البلد وزحف إليه زحفا شديدا ظنا منه أنه ربما يقع بين الأمرا و المقدمين اختلاف فيهزم البلد، فخاب أمله وأخذ فى مضايقة دمشق والاشتداد فى حربها وقتالها وثبت له أجنادها وعامتها أحسن ثبوت وصبروا له غاية الصبر، وبذل تجار دمشق.... له أموالهم للأجناد وتحابوا وتصابروا على الحرب، فرجع الملك عماد الدين أتابك زنكى إلى عسكره و جمعهم للمشورة»[1].

ثم تناول ابن أبى طى تفاصيل الاتفاق الذى تم بين دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية لدفع قوات زنكى عن دمشق، وآثره بعد ذلك على حصار زنكى لدمشق، فقال: «وراسل الأمير معين الدين إنر الأتابك الفرنج واستدعاهم إلى نصرته، و«بذل لهم بذولا»[2] على أن يُرحلوا الملك عماد الدين عن دمشق من جملتها: أنه يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم، وخوفهم من عماد الدين إن ملك دمشق أنه يملك البيت المقدس، ولا يترك لهم بلدا بالساحل، فخرج صاحب القدس فى جمع عظيم من الفرنج واتصل به قومص طرابلس واجتمعت الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها على قتال الملك عماد الدين، فبلغ ذلك الملك عماد الدين فرأى الرحيل عن دمشق من عين الصواب، لأنه لا طاقة له بأهل دمشق والفرنج، فرحل عن دمشق فى خامس شهر رمضان طالبا حوران مصمما على قصد الفرنج ومضايقتهم، وبلغ الفرنج تصميمه على لقايهم فعدلوا عن طريقه، وصاروا إلى دمشق، ونزلوا فى الميدان الأخضر على بابها»[3].

وكما لم يوفق عماد الدين زنكى فى ضم مدينة دمشق إلى أملاك دولته، فلم يوفق أيضا فى

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ورقة ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) كان معين الدين أنر قد استغاث بالملك فولك (١١٣١ ـ ١١٤٢ م/ ٥٢٥ ـ ٥٣٧ هـ) في مملكة بيت المقدس ، وتعهد له بدفع عشرين ألف قطعة من الذهب نفقة الحملة ، كما نصت الاتفاقية انه لا يتم إخراج زنكي من دمشق حتى يرد أنر مدينة بانياس للصليبيين ، كما قدم أنر عدد من الرهائن حتى يتم تنفيذ هذا الاتفاق ، وقد وافقت المملكة علي تقديم المعونة لدمشق لاستعادة مدينة بانياس . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦) .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢، ج ٤ ، ورقة ٢٨ .

حصار قلعة جعبر وقتل أثناء حصاره لها:

حصار زنكى قلعة جعبر:

تنسب قلعة جعبر إلى الأمير «جعبر بن سابق القشيري»[١]، ثم تولاها من بعده الأمير «سالم بن مالك العقيلي» فى عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م[٢]، وظلت القلعة واقعة تحت حكم «بنى عقيل» لمدة خمسة وثمانين عاما، حتى ملكها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م[٣].

وكان أتابك عماد الدين زنكى قد قام بمحاولة للسيطرة على قلعة جعبر فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وكان يهدف إحكام سيطرته على كل المنطقة التى ضمتها دولته، وحتى لا يكون - على حد قول ابن الأثير - فى وسط بلاده ما هو ملك لغيره، فقام بحصار القلعة ولما استشعر صعوبة فتحها حاول إخضاعها بالطرق السلمية، فقام بمراسلة حاكم القلعة الأمير «عز الدين على بن مالك العقيلي»، وأوفد إليه الأمير «حسان المنبجي»[٤] أمير «منبج»، لما كان بينهما من علاقات طيبة، وتضمنت رسالته إليه عرضا بتسليم القلعة فى مقابل التعويض عنها بالمال وبما يختاره من بلاد أخرى، وتضمنت الرسالة أيضا تهديدا فى حالة الرفض باستمرار الحصار والاستيلاء على القلعة عنوة، فسار الأمير حسان إلى أمير القلعة، ودار بينهما حوار طويل انتهى برفض قبول هذا العرض، ولذا عاود عماد الدين زنكى

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٢) ابن الأثير:الكامل، ج ٨ ، ص ١٤١ ؛ الباهر، ص٨ ؛ ابن خلكان:المصدر السابق، ج ١، ص٣٦٤ .

(٣) سنوضح تفاصيل ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جعبر في الجزء الأخير من الفصل .

(٤) حسان المنبجي : كان أميرا لمدينة منبج وأعمالها ، و اشتهر في كتب التاريخ بعدة أسماء منها : حسان المنبجي ، و حسان البعلبكي ، وحسان ابن كمشتكين التركي ، وتولي فضلا عن منبج مدينة « تل باشر»في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، وتوفي في عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص٣١٥ ، ج ٩ ، ص١٢؛ الباهر ص٧٤ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢١٨ـ ٢٨٣ ؛ بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، ج ٥ ، ص ٢٢٣٤) .

حصاره للقلعة، ولكنه لم يتمكن من فتحها حيث قتل أثناء هذا الحصار فى ربيع الآخر من نفس السنة[١].

وقد انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل الحوار الذى دار بين رسول عماد الدين زنكى و حاكم القلعة، وكان «ابن الأثير» قد أورد ملخصا لهذا الحوار[٢]،و اختلف ابن أبى طى مع ابن الأثير فى ذكر اسم رسول عماد الدين زنكى إلى قلعة جعبر فبينما ذكر ابن الأثير أنه كان الأمير حسان المنبجى ذكر ابن أبى طى أنه كان ابن هذا الأمير.

قال ابن أبى طى: «ومن عجيب ما حكى أنه لما اشتد حصار قلعة جعبر جاء فى الليل ابن حسان المنبجى ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها، فأجابه ؛ فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزير ولا معين ؛ وأنا أرى أن أدخل فى قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكانا عوض هذا المكان ؛ وإن لم تفعل فأى شى تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة: انتظر الذى انتظر أبوك. وكان بلك ابن بهرام صاحب حلب، قد نزل على أبيه حسان وحاصره فى منبج أشد حصار[٣]، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوما لحسان، وقد أحرقه بحجارة المنجنيق: أى شى تنتظر ؛ أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله. فلما كان من الغد، بَيْنا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم «غَرب»[٤] وقع في«لَبّته»[٥] فخر ميتا ؛ ولم يكن من جسده شى ظاهر إلا ذلك المكان، لأنه كان قد لبس الدرع ولم يزرّها على صدره. فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢ـ ١٣ . وانظر أيضا : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ بغية الطلب ، ج ٨ ، ص ٣٨٥٥ـ ٣٨٥٦ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣، ص ١٨ .

(٢) الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢ ؛ الباهر ، ص ٧٤ . وانظر أيضا : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٣) كان بلك بن بهرام قد قام بحصار منبج في صفر عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م . ولمزيد من التفاصيل انظر(ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣١٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢، ص ٢١٨ ـ ٢١٩)

(٤) غرب : أي لا يدري راميه . (الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ١١٠) .

(٥) اللبة : أي المنحر وهو موضع القلادة من الصدر(الرازى : مختار الصحاح ، ص٦١٣ ، ٦٧٤) .

جعبر رجع عنه. وفى تلك الليلة قُتل أتابك فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعِبَر الغريبة»[١].

وبهذا نكون قد انتهينا من دراسة كتابات ابن أبى طى عن تاريخ عماد الدين زنكى السياسى، وظهر من خلال تلك الكتابات اعتماد ابن أبى طى على كتابات «ابن القلانسي» - وإن كان لم يصرح بذلك - إلا أن بعض كتاباته اتفقت معه إلى حد التطابق، ومنها بعض كتاباته عن علاقة زنكى مع الإمبراطورية البيزنطية، كما اتفق معه فى بعض أحداث حصار زنكى لدمشق، كما انفرد بكثير من التفاصيل الأخرى الهامة خاصة تلك التى كان والده مصدره فيها، ومنها كتاباته عن وصف الغزو البيزنطى لنيقية، ووصول الأسرى الصليبيين إلى حلب وتطور أحوالهم بعد ذلك.

التاريخ الحضارى:

١ - على الصعيد الاجتماعى:

تطرق ابن أبى طى فى كتاباته إلى الناحية الاجتماعية فى حياة عماد الدين زنكى فى حلب، فذكر أحداث زواجه فى عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م من ابنة ملك حلب السابق «فخر الملوك رضوان بن تتش» (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ/ ١٠٩٥ - ١١١٣ م)، ثم طلاقه منها بعد مدة قصيرة، وأرجع سبب ذلك إلى اكتشافه تورط أسرتها فى قتل أبيه، ولم يكتف بتطليقها

بل قام بالثار منها ومن بقى من أسرتها. وهذا الموضوع تناوله أيضا «ابن العديم»، ولكن جاءت رواية ابن أبى طى أكثر تفصيلا[٢].

قال ابن أبى طى: «وفى شعبان منها (٥٢٤ هـ) تزوج الأمير «أتابك زنكى» من «زمرد خاتون بنت الملك رضوان» صاحب حلب، ثم أنزلها من القلعة وطلقها فى عاشر

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ١٠٩، عيون الروضتين، ج ١، ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٤. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠.

شهر رمضان، وكان سبب تطليقه لها أنه دخل إلى خزانة القلعة يعتبر منها فرأى فيها «كراريدا» حمر وعليه أثار الدم، فاستحسن الكراريد، فلما رآه صاحب الخزانة يستحسنه قال له: هذا كان للمولى «قسيم الدولة أقسنقر»[١] وهذا دمه عليه، يعنى والد زنكى، فأعظم ذلك زنكى»[٢].

ثم عرض ابن أبى طى وصفا انفرد فيه بتصوير حالة عماد الدين زنكى بعد رؤيته لهذه الكراريد، كما أمدنا بتفاصيل انتقامه من زوجته ومن ورثة الملك رضوان. وأورد ابن العديم أيضا جانبا من هذه التفاصيل، فذكر قيام زنكى بهدم المشهد الذى على قبر الملك رضوان[٣].

قال ابن أبى طى: «وشرب (زنكى) فى ذلك اليوم فى المنظرة التى تنظر إلى حلب، وأحضر زمرد خاتون وطلقها، وأمر بها (فانزل) إلى إسطبل الخيل وأمر السايس بمواقعتها فواقعوها، وهو يرى ذلك. ثم أمر بمشهد الملك الذى فيه قبر الملك رضوان أن يهدم وأن ينقل حجارته إلى السور، ونبش قبر رضوان، وأمر أن يعمل عليه بستانا، وتتبع جميع من كان بقى من أهل رضوان ومماليكه، فقتلهم وأخذ أموالهم»[٤].

٢ - على الصعيد المعمارى:

اهتم عماد الدين زنكى أثناء ولايته على حلب بتجميل الميادين بها، وقد انفرد ابن أبى طى بوصف مهم حدثه به والده عن أحد هذه الميادين، وما تم به ليصير من أجمل المتنزهات لأهالى حلب، كما أوضح أن دوافع زنكى لم تكن تجميل الميدان فقط، وإنما كان يهدف أيضا حماية الميدان - بعد أن يصير عامرا بالناس - من هجمات الصليبيين.

---

(١) كان تاج الدولة تتش والد رضوان قد قام بقتل قسيم الدولة آق سنقر في عام ٤٨٧ هـ . لمزيد من التفاصيل انظر . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١١٢ - ١١٣) .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ١٤ .

فقال فى أحداث عام ٥٣١ هـ:» حدثنى أبى قال: لما ملك أتابك حلب استحسن ميدان باب قنسرين وأمر أن يزرع فيه... ويجعل أرضه روضة، وأجرى إليه ساقية من النهر وعمل من جانبه القبلى بستانا، ومن جانبه الشمالى بستانا، ونصب فيها من أنواع الأشجار، وكان.. منه، وكان التركمان ينزلون حول هذا الميدان فى «الخركاهات». ويخرجن نساء الأتراك إلى الميدان يتراقصن بين يدى أتابك، وكان الذى حمله على ذلك الخوف من الفرنج وقرب هذا الميدان من البلد»[١].

كما أمدنا ابن أبى طى فى نفس هذا النص بتفاصيل أخرى مهمة تتعلق بسياسة زنكى المعمارية فى حلب، فأوضح أنه كان يحدد ارتفاع الطوابق بها، حتى بالنسبة لنائبه بها، فقال: «وجلس أتابك فى هذه السنة فى جوسق الميدان فرأى (فندق) الأمير «سوار» شحنة حلب وقد عمره طبقتين، فاستدعاه وأمره بهده وقال له: تريد أن تبنى على حلب شيئا (لى أخربه) فهدم إحدى الطبقتين، واستأذن التركمان عماد الدين أتابك زنكى فى أن يعمروا لهم بيوتا حول حلب فقال: حلب لا تحتمل حاضرا ومنع أن يبنوا عليها شيئا والله أعلم»[٢].

وبهذا النص الهام عن التاريخ الحضارى فى عهد زنكى انتهت الكتابات التى جمعناها فى عهده، ونواصل بعد ذلك كتابات ابنَ أبى طى عن عهد ولده نور الدين محمود.

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ورقة ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه والورقة .

كتابات ابن أبى طى عن عهد نور الدين محمود بن زنكي
(٥٤١-٥٦٩ هـ/ ١١٤٦-١١٧٤ م)

زخر عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بالكثير من كتابات المؤرخ ابن أبى طى الحلبى، و يرجع ذلك لارتباط عهده بنشأة و تطور أحوال الأسرة الأيوبية فى كنف الدولة الأتابكية، فلا تكاد تخلو فقرة من كتابات ابن أبى طى عن عهده دون أن يشير إلى دور لأحد أفراد الأسرة الأيوبية فيه، فيما عدا بعض الكتابات التى جمعناها لابن أبى طى من خارج كتابه الذى ألفه عن السيرة الصلاحية، أو بعض الأحداث التى وقعت فى الشام أثناء حملات أسد الدين شيركوه على مصر.

وقد ركزنا اهتمامنا فى هذا الفصل على توضيح كتابات ابن أبى طى عن تاريخ نور الدين محمود فى بلاد الشام، وألجأنا كتاباته التى توضح العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية إلى فصل مستقل.

وقد تناولت كتابات ابن أبى طى علاقات نور الدين محمود الخارجية مع الإمارات الصليبية، والبلاد الإسلامية، و الخلافة العباسية، كما أوضح أيضا علاقات نور الدين محمود مع إخوته.

وقبل عرض كتابات ابن أبى طى عن هذه الموضوعات نعرض فى البداية لما ذكره عن ولاية نور الدين محمود حلب فى عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م.

ولاية نور الدين محمود حلب:

كان «نور الدين محمود» مشاركا ضمن قوات والده عماد الدين زنكى أثناء حصار قلعة جعبر فى عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، وعقب مقتل والده فى هذا الحصار فى ربيع الآخر من نفس العام، أخذ نور الدين - كما قال ابن الأثير - خاتم الملك الخاص بوالده، و انتقل

مع قوات الشام التى كانت أيضا مشاركة فى الحصار إلى حلب، وتولاها منذ ذلك الوقت[١].

وقد ألمح ابن أبى طى أيضا فيما وصلنا من كتاباته إلى مشاركة نور الدين محمود والده أثناء حصار قلعة جعبر، فقال: «لما اتصل قتل أتابك «بأسد الدين شيركوه» ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين»[٢].

وقد انفرد ابن أبى طى بذكر بعض التفاصيل التى توضح ولاية نور الدين محمود حلب، من خلال عرضه للدور الذى قام به معه «أسد الدين شيركوه»[٣] فقال: «ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة، و نادى واليها و أصعد نور الدين إليها، وقرر أمره ومشى أحواله»[٤].

ثم أوضح ابن أبى طى تاريخ دخول نور الدين محمود حلب، فذكر أنه دخلها فى ربيع الأول عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م[٥]، و قد اختلف معه فى ذلك كثير من المؤرخين،

حيث أجمعت آراؤهم على أن مقتل زنكى كان فى شهر ربيع الآخر[٦] وقد يكون هذا

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٨٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٩ .

(٣) سنعرض تفاصيل هذا الدور في فصل العلاقة بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٠ .

(٥) المصدر نفسه و الصفحة .

(٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ١١٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٩ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ٢٥ .

الخطأ الذى وقع فيه ابن أبى طى حدث سهوا أثناء الكتابة بين كلمة ربيع الأول والآخر، ومما يرجح هذا الرأى أن ابن أبى طى حدد دخول نور الدين حلب فى اليوم السابع، ونعتقد أن هذا اليوم الذى حدده قريبا من الصحة لأن زنكى قتل بين اليوم «الخامس»[١] و«السادس»[٢] من شهر ربيع الآخر، واحتمال وصوله إلى حلب بعد يوم أو يومين من مقتل والده أمر ليس بعيدا، لأنه غادر قلعة جعبر كما ذكر ابن العديم فور سماعة خبر مقتل والده حتى أنه لم ينتظر دفنه[٣]، وسار مسرعا نحو حلب وساعده على ذلك قرب قلعة جعبر من حلب[٤].

جهود نور الدين محمود فى مقاومة الصليبيين:

اهتم نور الدين محمود باستكمال الطريق الذى كان قد بدأه والده عماد الدين زنكى من قبل من أجل القضاء على الإمارات الصليبية التى استوطنت بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى. وقد أوضح ابن أبى طى فى كتاباته الدور الذى قام به نور الدين محمود فى ذلك، ووصل إلينا من كتاباته جانبا من معارك نور الدين محمود مع إمارة أنطاكية الصليبية، كما أورد بعض الفتوحات والغارات التى قام بها على بعض البلدان الصليبية.

غزوات نور الدين محمود على إمارة أنطاكية الصليبية:

تناول ابن أبى طى بعض الغارات التى دارت بين نور الدين محمود والأمير ريموند

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٨ ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ٢٥ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٤) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، ١٣٨ .

دى بواتييه (١١٣٦-١١٤٩م/ ٥٣٠-٥٤٤هـ)،وعرض فيها لأحداث ثلاث من هذه الغارات.

وقد انفرد ابن أبى طى بذكر أولى الغارات التى شنها أمير أنطاكية على نور الدين محمود بعد أسبوع واحد من استقراره فى حلب في٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، حيث أوضح أنه بعد أن وصل إليه خبر مقتل عماد الدين زنكى، خرج بقواته فى نفس اليوم، وقسم قواته فرقتين للإغارة على بلدتى حماة وحلب، ووصل بغاراته إلى المناطق القريبة منهما، واقترب بغاراته من حلب عند بلدة «صلدي»[١]، ووصل خبر هذه الغارات إلى حلب، فخرج «أسد الدين شيركوه»[٢] للتصدى لهذه الهجمات.

قال ابن أبى طى فى ذلك: «فى سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب إنطاكية «البيمند»[٣]، فخرج {ليومه فى عساكر}[٤] أنطاكية وقسم عسكره قسمين: قسما أنفذه إلى جهة حماه وقسما أغار به على جهة حلب وعاث فى بلادها، وكان الناس آمنين فقتل و سبى عالما عظيما، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها. ووصل الخبر إلى حلب، فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر... وأدرك جماعة من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم»[٥].

---

(١) صلدي : قرية قريبة من حلب علي نهر قويق.(ابن العديم:زبدة الحلب،ج٢،ص٢٦٦، حاشية (١)) .

(٢) سنورد في فصل العلاقة بين الأسرة الأيوبية و الدولة الأتابكية مزيدا من التفاصيل حول أسد الدين شيركوه ، ودوره في هذه المعركة والمعارك القادمة .

(٣) خلط ابن أبي طي هنا بين اسم الأمير « ريموند دي بواتييه » و « الأمير بوهيموند الثاني » في ذكره لهذه الغارة ، و قال أنها كانت في عهد البيمند (أي بوهيوند الثاني) ، والذي كان تولي الحكم في أنطاكية من عام ١١٢٦ م / ٥٢٠ هـ و حتى عام ١١٣٠ م / ٥٢٤ هـ ، والصواب أنها كانت في عهد « ريموند دي بواتييه » الذي كان معاصرا لأحداث مقتل عماد الدين زنكي في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١، ق ١، ص ١٢٣ ، هامش(٣) طبعة دار الكتب ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٣٦) .

(٤) في طبعة « دار الجيل » . « في يومه بعساكر » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨) .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ (طبعة دار الكتب) .

وقد تناول خبر هذه الغارات بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى، ومنهم المؤرخ «ابن العبري»، وأورد ملخصا لأحداثها[١]، كما ذكرته أيضا المراجع الصليبية[٢].

ووقعت أحداث المعركة الثانية التى أوردها ابن أبى طى بين قوات نور الدين محمود و إمارة أنطاكية فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، فى منطقة «يَغرا»، وتناول «ابن القلانسي» هذه المعركة، وأوضح أن نور الدين محمود كان قد اتجه فى ذلك الوقت لغزو بعض نواحى أنطاكية، فقام أميرها بشن هجوم مفاجئ على قواته، فأحدث هذا ارتباكا فى صفوفه، وأدى إلى هزيمته[٣].

ووصلنا من رواية ابن أبى طى عن هذه المعركة نتيجتها فقط، فقال: «ومرَّ .... نور الدين، فقال (لشيركوه)[٤]: ما هذا الوقوف.. والمسلمون قد انكسروا»[٥]

ومن الملاحظ أن هذه المعركة لم يؤرخ لها كثير من المؤرخين المسلمين، وذكرها من المؤرخين اللاحقين بابن أبى طي «ابن العبري»[٦].وقد أورد كثير من المؤرخين معركة أخرى، وقعت فى نفس منطقة «يَغرا»[٧] بعد عدة أشهر من هذه المعركة فى عام ٥٤٣ هـ /

---

(١) اتفق ابن العبري مع ابن أبي طي في هذا الموضوع فقال : « وعلي أثر مقتل زنكي سار ريموند صاحب أنطاكية إلي أطراف حلب وحماه ، وفتك بكثيرين من العرب وغنم غنائم وافرة ، وعند عودته أدركه شيركوه واسترد منه الغنائم » . (تاريخ الزمان ، ص ١٦١) .

(٢) قال « رنسيمان » عند ذكره للهجوم الذي تعرضت له الدولة الأتابكية بعد مقتل زنكي : مضي ريموند أمير أنطاكية في غاراته حتى بلغ أسوار حلب » . (رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص ٣٨٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٧٧).

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٤) اهتم ابن أبي طي في هذه الرواية بتوضيح تطور العلاقة بين نور الدين محمود و أسد الدين شيركوه ، وسنوضح تفاصيل هذا التطور في فصل العلاقة بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٦) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٦٣ ؛ رنسيمان : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٥٢٤ .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٦.

١١٤٩ م، و انتصرت فى هذه المرة قوات نور الدين محمود على قوات أنطاكية[١].

أما المعركة الثالثة والأخيرة التى أوردها ابن أبى طى بين قوات نور الدين محمود وقوات إمارة أنطاكية، فوقعت أحداثها فى صفر عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م، وذكرها كثير من المؤرخين العرب، و تعرف بمعركة «إنب»[٢]، وكان نور الدين محمود قد حشد جيش كبير قوامه ستة آلاف فارس، واشتبكت قواته مع قوات أنطاكية عند حصن «إنب»

وانتهت المعركة بانتصار قوات نور الدين محمود انتصارا كبيرا، حيث قتل أمير أنطاكية فى المعركة، وقتل كثير من قواته، وغنم منها نور الدين محمود الكثير من الغنائم[٣].

وقد وصل إلينا من كتابات ابن أبى طى عن هذه المعركة نتيجتها فقط، واتفق فيها مع كثير من المؤرخين، فقال: «وقتل البرنس صاحب أنطاكية، وجماعة من وجوه عسكره،ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم و الأسارى»[٤].

فتوحات وغارات نور الدين محمود على الصليبيين:

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٢؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٤ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٧، ص ١٥٤؛ رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢٤.

(٢) إنب : بكسرتين وتشديد النون ، حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥٨) .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ؛ ابن الأثير : الباهر ، ص ٩٨ـ ٩٩ ؛ الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ،ج ١ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢؛ النويرى : المصدر السابق ، ج٢٧ ، ص ١٥٥ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥١ .

تناول ابن أبى طى فى كتاباته جانبا من فتوحات وغارات نور الدين محمود على بعض المدن الصليبية، وذلك فى خلال الفترة من عام ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م، و حتى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م، فعرض لمعاركه حول «بانياس» والتى انتهت بفتحها فى عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، كما أوضح غاراته علي«صيدا» و معركته على «حصن الأكراد»، ثم فتحه «حصن حارم» فى عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، و «حصن عرقه» فى عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م.

فتح بانياس:

قام نور الدين محمود بحصار مدينة «بانياس»[١] فى عام ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م،وكان ذلك - كما أوضح ابن أبى طى - بسبب قيام بعض القوات الصليبية بالإغارة على بلدتى حمص وحماة، فأرسل إليهم قوة كبيرة نجحت فى إنزال الهزيمة بهم بالقرب من بانياس[٢]، ثم قام نور الدين محمود بحصار بانياس، وتمكن من فتح مدينتها. قال ابن أبى طى فى شرح ذلك:«فى سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماه

وأفسدوا، وأكثروا العيث ؛ واتصل ذلك بنور الدين {فأنهد}[٣] إليهم عسكرا كثيفا، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس. وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس، وحاصرها أشد حصار، حتى افتتحها فى الثامن والعشرين من ربيع الأول، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق »[٤].

وقد لاحظنا اتفاق ابن أبى طي مع «ابن القلانسي» فى ذكره لهجوم القوات الصليبية

---

(١) بانياس:مدينة تقع عند سفح جبل لبنان،بالقرب من دمشق،وقلعتها تعد من أجل القلاع وأحصنها.(وليم الصوري:الحروب الصليبية،ج٤،ص٣٤؛القلقشندي:صبح الأعشى،ج٤، ص١٠٤).

(٢) قاد هذه القوة « نصرة الدين أمير أميران » أخو نور الدين محمود . للمزيد من التفاصيل انظر . (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٥١٩ - ٥٢٠) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « أنهض » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٨) .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٣ (طبعة دار الكتب) .

على بلدتى حمص وحماه، مما يجعلنا لا نستبعد اعتماد ابن أبى طى على كتابات ابن القلانسى فى هذه الحادثة، ومن ناحية أخرى اختلف معه ابن أبى طى فى ذكر تاريخ فتح نور الدين محمود مدينة بانياس، حيث أوضح ابن القلانسى أن فتحها كان فى يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الآخر عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م[١].

ومن الملاحظ أيضا أن هذا الموضوع لم يتناوله كثير من المؤرخين المسلمين، ولذا يعد ابن القلانسى ومن بعده ابن أبى طى من أهم من كتب فيه، وقد أضاف ابن القلانسى والمصادر والمراجع الصليبية أن نور الدين محمود لم يتمكن من فتح قلعة بانياس لحصانتها، فترك حصارها، بعد أن قام بإشعال النار فى مدينة بانياس[٢].

وبعد سبع سنوات من هذه المعركة، وفى ذى الحجة عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، كللت جهود نور الدين محمود الرامية إلى إعادة بانياس إلى الحكم الإسلامى بالنجاح حيث قام بحصارها وفتحها فى ذلك العام، وساعده على ذلك - كما ذكر بعض المؤرخين - قلة من فيها من الحامية، وانضمام والى بانياس إلى الحملة الصليبية التى اتجهت إلى غزو مصر[٣] فى ذلك العام[٤].

وقد وجدنا من كتابات ابن أبى طى عن هذه المعركة، جملة واحدة تحدد نتيجتها فقال: « ونزل (نور الدين محمود) على بانياس فافتتحها»[٥].

---

(١) المصدر السابق، ص ٥١٩، ٥٢٢.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٢٢ - ٥٢٣؛ وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠٦ - ٤٠٨؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٥٢ - ٥٥٣).

(٣) سنوضح تفاصيل هذه الحملة في الفصل الخاص بتاريخ الخلافة الفاطمية.

(٤) وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٧؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢١؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص١٧٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٦؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٩٩.

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٢.

غارة نور الدين محمود على صيدا:

تناول ابن أبى طى فى أحداث عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩ م الغارة التى قام بها أسد الدين شيركوه على «صيدا»[١]، وأوضح أن نور الدين محمود كان قد أرسله إلى هناك بسبب إغارة الصليبيين على بلد «حوران»[٢].

قال ابن أبى طى: «فسار (شيركوه).... فوجد نور الدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج فى بلد «حوران»، فسار فى صحابته ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم انهض أسد الدين فى قطعة من العسكر للإغارة على بلد «صيدا»... ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث فى بلد صيدا وقتل وأسر عالما عظيما»[٣].

وقد اتفق ابن أبى طى فى معظم ما ذكره من أحداث فى هذه الرواية مع المؤرخ ابن القلانسى[٤]، مما يؤكد أن كتابات ابن القلانسى كانت من المصادر التى اعتمد عليها، ويرجع ذلك لأهمية كتابات ابن القلانسى نظرا لمعاصرته لكل هذه الأحداث. ومن الواضح أيضا أن ابن أبى طى كانت له مصادر أخرى اعتمد عليها فى هذه الحادثة، لأنه اختلف مع ابن القلانسى فى ذكر العام الذى وقعت خلاله أحداث هذه الغارة، فذكرها ابن القلانسى فى أحداث عام ٥٥٣ هـ / ١١٤٨ م، و أوردها ابن أبى طى ضمن أحداث عام ٥٥٤ هـ / ١١٤٩ م.

كما لاحظنا أيضا أن خبر هذه الغارة لم يتناوله كثير من المؤرخين المسلمين، وذكر

---

(١) صَيْدا : مدينة تقع بالقرب من دمشق ، علي ساحل البحر المتوسط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٣٧) .

(٢) حَوران : كورة واسعة تقع بالقرب من دمشق من جهة القبلة ، وهي ذات قرى كثيرة ومزارع . (المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٧) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ٣٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ .

بعض منهم خبر الغزوة الصليبية على حوران[١]. ثم تناول ابن أبى طى معارك نور الدين محمود على حصنى الأكراد وحارم ، وأوضح أنه قام بحملاته على هذه المناطق بسبب سوء الأحوال فى مصر فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م. وكان نور الدين قد أرسل فى ذلك العام حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، بهدف إعادة الوزير الفاطمى «شاور» إلى منصبه فى الوزارة،وبعد أن نجحت حملته فى تحقيق هدفها،قام شاور بمماطلة شيركوه فى دفع ما اتفقا عليه نظير هذه الحملة، وفى نفس الوقت قام بمراسلة الصليبيين

لمساندته ضد حملة نور الدين، فأرسلوا إليه حملة صليبية لهذا الغرض[٢].

وإزاء كل هذه الأحداث قرر نور الدين محمود مهاجمة أملاك الصليبيين فى الشام لإجبارهم على مغادرة مصر، خاصة بعد أن انقطعت عنه أخبارها. قال ابن أبى طى فى ذلك: «وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين، وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور»[٣].

وقد لاحظنا أن ابن أبى طى لم يحدد تاريخ هجمات نور الدين محمود على حصنى الأكراد وحارم، بل و يفهم من أسلوبه أن نور الدين خاض هذه المعارك من أجل إجبار الحملة الصليبية على مغادرة مصر، ومن خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى مع كثير من المؤرخين، تبين لنا أن معركة نور الدين على حصن الأكراد وقعت أحداثها فى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م، أى قبل إرسال حملة نور الدين محمود والحملة الصليبية إلى مصر، أما معركة حارم فقد خاضها نور الدين كما قال «العماد الأصفهاني» بعد ثلاثة أشهر من معركة حصن الأكراد فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م[٤]، وقصد منها إجبار الحملة الصليبية على مغادرة مصر

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٣ ، ج ٦ ، ورقة ٦ .

(٢) سوف نتناول تفاصيل هذه الحملات في الفصل الخاص بتاريخ الخلافة الفاطمية .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ (رواية العماد الأصفهاني) .

كما ذكرناه من قبل[١]، وقد اتفق ابن الأثير مع ابن أبى طى فى ذكر هذا السبب[٢].

ثم قام نور الدين محمود بإعداد القوات العسكرية التى ستشارك معه فى هذا الغزو، وقد أوضح «ابن الأثير» أنه أرسل فى طلب هذه القوات من حلفائه ملوك الأطراف فى الموصل و بلاد الجزيرة، وحصن كيفا، وماردين[٣].

وقد اتفق ابن أبى طى معه فى ذلك، كما انفرد ببعض التفاصيل عن مجد الدين بن الدايـة ودوره فى قيادة هذه القوات. فقال: «فكاتب الأطراف بقدوم العساكر، فقدم عليه عساكر الشرق جميعا واجتمعوا بأرض حلب فنزل بهم «مجد الدين بن الدايـة»[٤]،وكان نائب نور الدين بحلب،وسار إلى جهة «حارم»[٥] ونزل على

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٢-٨٣، ٨٦-٨٧؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣، ٣١٨-٣٢١؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص ١٧٦-١٧٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٥، ١٤٣-١٤٦؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٩٣، ٥٩٦-٥٩٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٦. وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٦. وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨-٣١٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٣-١٤٤؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٦٤.

(٤) محمد بن محمد بن نشتكين المعروف بمجد الدين أبو بكر بن الداية: رضيع نور الدين محمود و ابن دايته. كان من أعظم الأمراء منزلة عند نور الدين محمود، وجعله نائبا عنه في حكم حلب، وولاه أيضا «حصن حارم» بعد فتحه في عام ٥٥٩ هـ/ ١١٥٤ م، كما ولاه أيضا «قلعة جعبر» في عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م. وتوفي في رمضان عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٣٠؛ بغية الطلب، ج ١٠، ص ٤٣٦٨؛ أبو الفداء: المختصر، ص ٤٩).

(٥) حارم: بكسر الراء، وهو حصن حصين تجاه إنطاكية، ويعد من أعمال حلب، ويذكر وليم الصوري أنه كان أحد معاقل الصليبين الحصينة في إمارة إنطاكية الصليبية. (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٣١؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٥؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٩٦).

«أرتاح[١]»[٢].

معركة نور الدين محمود على حصن الأكراد:

واصل ابن أبي طي في روايته عرض تطورات الأحداث بعد اجتماع الجيوش عند أرتاح، فذكر خروج نور الدين محمود من دمشق على رأس قواته لغزو حصن الأكراد، وقيامه بشن الغارات في طريقه إليه على بعض المناطق الواقعة على ساحل البحر المتوسط، ثم عرض تفاصيل معركة حصن الأكراد، فقال: **«وخرج نور الدين من دمشق، وشن الغارة على الساحل، و قتل و أسر عالما عظيما، ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الأكراد ؛ فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في «مرجه»[٣] فخرج إليه «الفرنج الأخوة»[٤] من حصن الأكراد وهجموا**

عسكره، و قتلوا جماعة من المسلمين ؛ وكان عسكر نور الدين غافلا فلم يتماسك الناس وساروا على وجوههم»[٥].

وقد انفرد ابن أبي طي بما أورده في هذه الرواية من تفاصيل غارات نور الدين محمود،

---

(١) أرتاح : حصن منيع من أعمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

(٣) المرج : مرعى الدواب . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٦٤٥) .

(٤) قاد القوات الصليبية في هذه المعركة « جيلبرت دى لاسي » قائد فرسان المعبد (الداوية) كما شارك فيها أيضا اثنان من النبلاء القادمين من رحلة الحج وهما : « جود فروي » ويلقب بهارتل و« هيج اللوزنياني » المنعوت بالأسمر . وهذان انحازا إلي ريموند كونت طرابلس ، كما انضم إليهم بوهيمند الثالث أمير أنطاكية و القائد البيزنطي قنسطنطين كولمان . وكانت كلمة « الأخوة » تطلق علي فرقة فرسان الداوية و الإسبتارية ، وقد يكون سبب إطلاق هذا اللقب عليهم ، هو قيامهم كما قال « ابن العبري » بالقتال في سبيل جميع المسيحيين . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، ١٣٢ ، ٤٠٥ ، ٤٥٤ ، ج ٤ ، ص ٣٠ ، ٣٨ ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٧١ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٩٣) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ .

وبما ذكره عن مهاجمة قوات فرسان الداوية «الفرنج الأخوة» لقوات نور الدين محمود. وكان «العماد الأصفهاني» قد ذكر أن هذه المعركة عرفت بموقعة «البقيعة» وفيها هُزمت قوات نور الدين محمود هزيمة فاجعة، حتى أنه «أفلت فى أقل من عشرة من عسكره»، كما ذكر «ابن الأثير» أنه نجا بنفسه تاركا متاعه وسيفه[1].

و بعد هزيمة نور الدين محمود اتجه نحو أرتاح للانضمام إلى القوات المتمركزة هناك، وقد أشار ابن أبى طى - قبل تناوله لتفاصيل المعركة التالية التى خاضها نور الدين محمود مع هذه القوات - إلى تطور العلاقة بين نور الدين محمود و أخيه الأصغر «نصرة الدين»[2]، وكانت العلاقة بينهما قد ساءت منذ عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، حيث كان نور الدين محمود قد تعرض فى ذلك العام لمرض شديد، فجعل نصرة الدين وليا للعهد من بعده ، وحاول نصرة الدين الاستيلاء على حلب فى فترة مرضه، وبعد شفاء نور الدين محمود، أخذ على أخيه هذا الفعل، وساءت العلاقات بينهما منذ ذلك الوقت[3]. وقد أوضح ابن أبى طى هنا تطورا آخر فى العلاقة بينهما، حيث عرض للمساعى التى قام بها نصرة الدين من أجل تحسين علاقته مع نور الدين فقال: «وسار

نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أرتاح، وكان أخوه نصر الدين مع الفرنج، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصدا أخاه نور الدين، فلما قرب

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٣ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٣١٢ - ٣١٤؛أبو شامة:المصدر السابق،ج١ ، ق١ ،ص ٣١٨-٣٢٠،ق٢، ص٣٣٩(رواية العماد الأصفهاني) ؛ ابن العبري:المصدر السابق ، ص ١٧٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٢) نصرة الدين أمير أميران : هو أصغر أبناء عماد الدين زنكي ، وشارك نور الدين محمود في بعض المعارك ، ومنها معركة بانياس التي انتهت بفتحها في عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م ، وفيها أصيب بسهم أذهب إحدى عينيه ، وتوفي في عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ، ص ٨٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢١؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٦٧) .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٣٣ - ٥٣٥ . وسوف نوضح تفاصيل هذا الموضوع خلال أحداث هذا الفصل .

منه نزل وقبل الأرض بين يديه، فلم يلتفت{عليه}[١] فتم على وجهه»[٢].

وقد انفرد ابن أبى طى بعرض مساعى الصلح بين نصرة الدين وأخيه نور الدين محمود، والتى لم تلبث أن آتت ثمارها بعد فترة وجيزة، حيث تم عقد الصلح بينهما أثناء معركة حارم[٣].

فتح حارم:

بعد انضمام نور الدين محمود إلى القوات المتمركزة عند «أرتاح»، خاض معهم إحدى أهم معاركه أمام الصليبيين، وشارك فيها من الجانب الصليبى أهم الأمراء و القادة[٤]، وحقق فيها نور الدين محمود انتصارا كبيرا بفتحه «حصن حارم» فى رمضان ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، ووقع فى أسره معظم الأمراء الصليبيين وثأر بذلك لهزيمته عند حصن الأكراد[٥].

ووصف ابن أبى طى فيما وصلنا من روايته جانبا من تفاصيل القتال فى هذه المعركة، فقال:«واصطف الناس للحرب، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة، ثم عادت

(١) في طبعة دار الجيل : « إليه » . (أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ١٦٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ (طبعة دار الكتب) .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٤) وهم : بوهيموند الثالث أمير إنطاكية ، وريموند الصغير كونت طرابلس ، و قنسطنطين كولمان والي كيليكية ، و توروس أحد كبار أمراء الأرمن . (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٣١ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٩٦) .

(٥) وليم الصوري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١ ـ ٣٣؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ـ ٣٢١ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٩ (رواية العماد الأصفهاني) ؛ ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥؛ رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢، ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧ .

فوجدت راجلها جميعه قد قتل و الخيل قد أطبقت عليهم، فنزلوا عن {الخيل}[١] وألقوا أسلحتهم واذعنوا بالأمان، فأخذوا جميعا قبضا بالأيدي، وسار إلى حارم ففتحها»[٢].

و قد اختلف «ابن الأثير» مع ابن أبى طى أثناء وصفه للأحداث الأولى فى المعركة، عندما ذكر هزيمة «الميسرة» فى جيش نور الدين محمود، فذكر «ابن الأثير» أن الهزيمة وقعت فى «الميمنة»[٣]، واتفق «ابن شداد» مع ابن أبى طى فيما ذكره[٤]

ثم تناول ابن أبى طى رغبة نور الدين محمود فى غزو أنطاكية بعد فتحه حارم، فقال: «وأراد النزول على إنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن فى مصر من المسلمين ؛ فأنحرف قاصدا لدمشق.... وأغار على بلد «طبرية[٥]»[٦].

وقد اتفق ابن أبى طى مع «ابن الأثير» فيما ذكره عن تفكير نور الدين محمود فى محاصرة إنطاكية لخلوها ممن يحميها، خاصة بعد أسر نور الدين أميرها «بوهيموند الثالث» فى معركة حارم.

وفى رأينا لم يكن ابن أبى طى موفقا فى تحليله لسبب رفض نور الدين محمود القيام بحصار إنطاكية، حيث كان نور الدين قد خاض معاركه على حصن حارم وبانياس، وكان أيضا قلقا على أحوال مصر. وقد أورد ابن الأثير سببا أعمق وأهم من هذا السبب، فأوضح أنه رفض حصارها لحصانة قلعتها، وخوفه فى حالة تشديد حصاره عليها أن

(١) في طبعة « دار الجيل » : « الخيول » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٧) .
(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ (طبعة دار الكتب) .
(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٨٦ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ .
(٤) الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٨ .
(٥) طَبَرِية : هي بليدة مطلة علي البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وتقع في طرف جبل ، و جبل الطور مطل عليها ، وهي من أعمال الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧) .
(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ .

يسلمها واليها للإمبراطور البيزنطى، كما أوضح ابن الأثير أن نور الدين كان يرى أن بقاء إمارة صغيرة للصليبيين خير من أن يتركها لتؤلف جانبا من إمبراطورية كبيرة، ولذا قام بإطلاق سراح أمير إنطاكية فى مقابل حصوله على الكثير من الأموال والأسرى[١].

فتح حصن عرقة:

كان آخر ما وصل إلينا من كتابات ابن أبى طى عن جهود نور الدين محمود فى مقامة الصليبيين هو قيامه بفتح حصن «عرقة»[٢] فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، وكان نور الدين محمود قد قام بالهجوم على هذا الحصن بسبب غدر صليبى مدينة «اللاذقية» بسفينتين مصريتين تجاريتين واستيلائهم على كل محتوياتهم، ونقدهم للهدنة المبرمة معه، فقام نور الدين محمود بشن العديد من الغارات على إمارتى إنطاكية و طرابلس، وقام بفتح حصن عرقة[٣].

قال ابن أبى طى فى تفاصيل فتح هذا الحصن: «جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقه، ونازلها، وقاتلها، أياما حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها، وغنم الناس غنيمة عظيمة»[٤].

وكان فتح نور الدين محمود لحصن عرقة آخر ما حفظته لنا بعض المصادر الإسلامية عن كتابات ابن أبى طى الحلبى عن جهود الملك العادل نور الدين محمود فى مقاومة

---

(١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٥ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ ؛ رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .

(٢) عرقة : بكسر أوله وسكون ثانية . بلدة في شرقي طرابلس ، وهي آخر عمل دمشق ، و يقع في سفح جبل . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٩) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١١٣ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٤٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج٢ ، ص٣٣٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج١ ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ ؛ رنسيمان : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٣٨ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٦ .

الصليبيين فى الشام. وكما رأينا فقد انفرد ابن أبى طى بكتابة بعض أحداث الغارات و المعارك التى خاضها نور الدين محمود، فانفرد بذكر أولى الغارات التى شنها أمير إنطاكية «ريموند دى بواتييه» بالقرب من حلب بعد مقتل عماد الدين زنكى مباشرة فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، كما انفرد أيضا ببعض أحداث معركة نور الدين محمود على حصن الأكراد فى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م.

كما ظهر لنا أيضا اتفاق ابن أبى طى فى بعض الأحداث التى ذكرها مع المؤرخ «ابن القلانسي» ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، وهذا الاتفاق يؤكد لنا أن كتابات ابن القلانسى كانت من المصادر المهمة التى اعتمد عليها ابن أبى طى، كما اتفق أيضا ابن أبى طى مع ابن الأثير فى ذكره للتفاصيل العامة لبعض الأحداث.

توسعات نور الدين محمود الإسلامية فى بلاد الشام:

اتسعت الدولة الأتابكية فى بلاد الشام فى عهد نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ / ١١٧٤ م)، وشملت العديد من البلاد الإسلامية، وقد وصل إلينا من كتابات ابن أبى طى بعضا من هذه التوسعات، فأورد ملكه دمشق فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م، و بعلبك فى عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م، وحصن شيزر فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، وأخيرا ملكه قلعة جعبر فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م.

• سيطرة نور الدين محمود على دمشق:

تعد مدينة دمشق من أهم مدن الشام الرئيسية، ولهذا اهتم ملوك الدولة الأتابكية بضمها إلى أملاك دولتهم، فقام عماد الدين زنكى كما أوضحنا فى بداية هذا الفصل بحصار دمشق فى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وبعد ولاية نور الدين محمود بن زنكى فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، تأرجحت علاقته مع دمشق بين الحرب و السلام، فتوطدت علاقته فى الثلاث أعوام الأولى من حكمه (٥٤١ ـ ٥٤٤ هـ / ١١٤٦ ـ ١١٤٩ م) مع «معين الدين إنر» الذى

كان بيده مقاليد الحكم فى دمشق وعقد بينهما معاهدة تحالف، تقضى بأن يتعاونا معا فى تقديم العون العسكرى فى وقت الحرب[١]، وشهدت الفترة منذ عام ٥٤٤ ـ ٥٤٦ هـ / ١١٤٩ ـ ١١٥١ م، اضطرابا فى العلاقات بينهما، حيث كان معين الدين إنر قد عقد قبل وفاته بأشهر قليلة فى المحرم عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م معاهدة تحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية لمدة عامين، وطبقا لهذه المعاهدة رفض ولاة الأمور فى دمشق إمداد نور الدين بالقوات فى حروبه مع الصليبيين، ولهذا قام بحصار دمشق عدة مرات فى أعوام ٥٤٤، ٥٤٦ هـ / ١١٤٩، ١١٥١ م، ثم توطدت علاقته مرة أخرى مع دمشق، وعقد الصلح بينهما فى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م[٢].

ثم كان سقوط مدينة عسقلان فى أيدى القوات الصليبية فى عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، من أهم الأسباب التى جعلت نور الدين محمود يفكر فى حصار دمشق مرة أخرى، حيث كانت دمشق تقع على الطريق المؤدى إلى عسقلان، ولم يمكنه ذلك من شن هجماته على عسقلان، ومن ناحية أخرى قلق نور الدين من احتمال سقوط دمشق فى أيدى الصليبيين، خاصة بعد أن فرضوا جزية سنوية على دمشق، كما قاموا بإحصاء المماليك و الجوارى النصارى فى دمشق وأبعدوهم عنها، ولهذا قام نور الدين باستعمال الحيلة مع أمير دمشق «مجير الدين آبق»[٣]، ونجح فى إبعاد أهم أمرائه عنه، ثم قام بحصار دمشق فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م[٤].

---

(١) أورد ابن القلانسي عدة أمثلة توضح هذا التحالف الذي تم بين معين الدين إنر و نورُ الدين محمود للمزيد من التفاصيل انظر(تاريخ دمشق ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ـ ٤٨٠ ، ٤٨٤ ـ ٤٨٩ ، ٤٩٦.

(٣) هو الأمير مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين : تولي حكم دمشق في عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م ، واستمر واليا عليها حتى ملك نور الدين محمود دمشق في عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤ م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧) .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٤٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ .

وقد تناول ابن أبي طي في مقدمة عرضه لتفاصيل هذا الحصار، الأسباب المباشرة التي أدت إلى سوء العلاقة بين أمير دمشق مجير الدين آبق ونور الدين محمود، والتي اتخذها نور الدين بعد ذلك ذريعة لحصار دمشق. وتتلخص هذه الأسباب في رفض مجير الدين استقبال «أسد الدين شيركوه»، وكان نور الدين محمود قد أوفده رسولا إليه، فوصل شيركوه إلى دمشق في موكب كبير من الفرسان، فأقلق ذلك مجير الدين ورفض مقابلته، وأعلم شيركوه نور الدين بذلك. فجاء على رأس قواته لحصار دمشق.

قال ابن أبي طي: «أنفذ نور الدين {أسد الدين}[1] شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق، فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظُم على مجير الدين ذلك، وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة ؛ ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق. فاستوحش أسد الدين، ونزل «بمرج القصب» وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره»[2].

ثم عرض ابن أبي طي أحداث حصار دمشق، فقال: «وزحف (نور الدين) إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر، وتولى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد ؛ ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من {شرقيه}[3]، وجُل العسكر مقابله. ورأى من كان مع نور الدين من «الجاندراية»[4] والحلبيين {إلي}[5] خلو السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور

---

(١) ساقطة من طبعة دار الكتب . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ (دار الكتب) ، ج ١ ، ص ٩٦ (دار الجيل) .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ (طبعة دار الكتب) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « شرقها » . (المصدر نفسه ، ج ١، ص ٩٦) .

(٤) أمير جاندار : لقب مركب من ثلاثة ألفاظ : أمير ، والثاني جان ومعناه الروح بالفارسية و التركية . والثالث دار : ومعناه ممسك . أي «الأمير الممسك للروح » . ويعني آخر الحافظ لدم السلطان . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦١) .

(٥) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١، ص ٢٣٩ (دار الكتب) ، ج

وتعلقوا به، وحصلوا فى الحال على الأسوار. ويقال

إن امرأة كانت على السور، فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم، وصعد جماعة أخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين. فوقع على أهل البلد الخذلان، وكسر باب البلد، ودخلت الخيالة منه وملك نور الدين دمشق»[١].

وقد اتفق ابن أبى طى فى معظم أحداث هذا الموضوع مع المؤرخ «ابن القلانسي»، و ظهر ذلك من خلال عرضه لنفس أفكاره، كما اتفقت بعض جمله تماما مع ابن القلانسى[٢]، وهذا الاتفاق كشف لنا عن مصدر مؤكد من المصادر الرئيسة التى اعتمد عليها ابن أبى طى فى كتاباته، خاصة فى الأحداث التى تتعلق بتاريخ دمشق، كما اعتمد ابن أبى طى على مصادر أخرى فى هذا الموضوع، وظهر ذلك من خلال بعض الجمل التى انفرد بكتاباتها.

سيطرة نور الدين محمود على بعلبك:

خضعت بعلبك لسلطة الدولة الأتابكية فى عهد أتابك «عماد الدين زنكي» فى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وقد أوردنا فى بداية هذا الفصل جانبا من رواية ابن أبى طى عن هذا الموضوع، وظلت بعلبك تابعة للدولة الأتابكية حتى قتل عماد الدين زنكى فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، فاستغل عندئذ «مجير الدين آبق» أمير دمشق اضطراب أحوال الدولة الأتابكية عقب مقتل زنكى، وقام بحصار بعلبك حصارا شديدا، وقد أورد ابن أبى طى تفاصيل هذا الحصار فقال: «اشتد صاحب دمشق فى القتال... فاتفّق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك «غار»[٣] حتى لم يبق منه شئ،{و}[٤] أهل القلعة يستمدون من البلد. فلما

---

١ ، ص ٩٦ (دار الجيل) .

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ (طبعة دار الكتب) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(٣) غار الماء : أي ذهب في الأرض . (الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ١٠٣) .

(٤) في طبعة : « دار الجيل » . « صار » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨) .

ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة»[١].

وقد اتفق ابن أبى طى فى معظم روايته عن هذا الحصار مع المؤرخ «ابن القلانسي»، ويعد هذا الاتفاق تأكيدا جديدا على اعتماده على كتاباته[٢]، هذا بالإضافة إلى مصادره الأخرى التى انفرد بها بشرح تفاصيل قلة الماء فى بعلبك.

وقد ظلت بعلبك تابعة لسلطة دمشق، حتى ملك نور الدين محمود دمشق فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م، فاتجه إلى بعلبك فى العام التالى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م، وأعادها إلى سيطرة الدولة الأتابكية مرة أخرى. قال ابن أبى طى فى تفاصيل ذلك: «ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن «مجير الدين» صاحب دمشق... ولى القلعة رجلا يقال له «ضحاك»[٣]. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا»[٤]

وقد اتفق أيضا ابن أبى طى فى روايته عن مُلك نور الدين محمود بعلبك مع ابن القلانسى، خاصة فيما أورده عن تاريخ ملك نور الدين لها فى عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م، حيث كان المؤرخ «ابن الأثير» قد ذكر أن ملكه بعلبك كان فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، وذكر عنه هذا التاريخ كثير من المؤرخين[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٩ .

(٣) هو ضحاك البقاعي : نسبة إلي بقاع بعلبك . (ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٥٧) .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٥٠٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٧ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣ ؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٧، ص ١٦١ .

ملك نور الدين محمود حصن شيزر:

كان «حصن شيزر»[١] واقعا تحت سيطرة أسرة «بنى منقذ»، لأكثر من خمسة و سبعين عاما، منذ أن تولاه الأمير «أبو الحسن على ابن المقلد بن منقذ» فى عام ٤٧٤هـ / ١٠٨١ م، وظل الحكم متوارثا فى أسرته، حتى سقوط الحصن إثر وقوع زلزال قوى فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م[٢]. وعقب سقوط الحصن اتجه نور الدين محمود إليه وملكه، وقال ابن أبى طى عن هذا الموضوع: «وفى هذه السنة كانت الزلزلة التى هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بنى منقذ وسلمها إلى مجد الدين ابن الداية[٣]، وانتقل بنو منقذ إلى دمشق ومنهم «مؤيد الدولة أسامة» المشهور بالشجاعة والنظم الفائق وكان قد أسن»[٤].

وقد اتفق ابن أبى طى مع ابن الأثير فيما أورده من أحداث سقوط الحصن وولاية نور الدين له، وأضاف ابن الأثير أن جميع بنى منقذ الذين كانوا فى الحصن قد ماتوا أثناء هدمه[٥]، وانفرد ابن أبى طى بما ذكره عن ولاية مجد الدين بن الداية للحصن، وانتقال المؤرخ «أسامة بن منقذ» إلى دمشق بعد هدم الحصن.

سيطرة نور الدين محمود على قلعة جعبر:

كانت قلعة جعبر من أمنع القلاع و أحصنها[٦]، وقام أتابك عماد الدين زنكى بحصارها فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقتل أثناء هذا الحصار كما سبق أن أوضحنا. وقد

---

(١) حصن شيزر : هو من أمنع القلاع وأحصنها ، ويقع علي جبل عال منيع لا يسلك إليه إلا من طريق واحد بالقرب من حماه (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٣ ؛ الباهر ، ص ١١٠).

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ .

(٤) أبو شامة : عيون الروضتين ، ق ١ ، ص ٢٤٤ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٤ ـ ٥٥. وانظر أيضا:ابن العديم:المصدر السابق ، ج ٢، ص ٣٠٧

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٨ .

اهتم أيضا نور الدين محمود بن زنكى بملك القلعة، وسنحت له الظروف لذلك فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، حيث قامت قبيلة «بنى كلاب» بالقبض على والى القلعة «شهاب الدين مالك بن على العقيلي»، أثناء خروجه للصيد، فى رجب عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٨ م، وذلك للعداوة الشديدة التى كانت بينهما وحملوه إلى نور الدين محمود، فاعتقله عنده مدة، وحاول خلالها إقناعه بتسليم القلعة إليه، تارة بالترغيب وتارة أخرى بالترهيب، ثم قام نور الدين بإرسال قواته لحصار القلعة بقيادة «فخر الدين مسعود بن الزعفراني»[1]، و «سابق الدين عثمان بن الداية»[2]، فعجزت قواتهم أمام القلعة، فأرسل نور الدين «مجد الدين بن الداية» على رأس قوة أخرى لحصار القلعة[3].

وقد وصلنا من رواية ابن أبى طى عن ملك نور الدين محمود قلعة جعبر أحداث الحملات العسكرية التى أرسلها إليها، فقال: «وفيها (٥٦٤هـ) رجع «فخر الدين مسعود بن الزعفراني»، و«سابق الدين عثمان بن الداية»،عن حصار قلعة جعبر عجزا عنها. فأرسل الملك العادل نور الدين صاحب الشام «مجد الدين أبا بكر ابن الداية» ـ نائب السلطة بحلب ـ

---

(١) فخر الدين مسعود بن الزعفراني : كان من كبار الأمراء في عهد نور الدين محمود ، وأقطعه عدة بلاد دون قلاعها ، ومنها « حمص ، و حماة ، وسلمية ، و تل خالد ، والرها،هذا بالإضافة إلي قلعة بارين ، وقد اشتهر عنه أنه كان سيئ السيرة مع الناس في البلاد التي كانت حكمه ، ولم يكن يقيم في حماة أو حمص لهذا السبب.(العماد الأصفهاني:سنا البرق،تلخيص البنداري، ص٦٩؛ابن العديم:زبدة الحلب،ج٣،ص٢٠؛ابن واصل:مفرج الكروب،ج٢،ص٢٢؛الحنبلي:شفاء القلوب،ص ١٠٩).

(٢) سابق الدين عثمان بن الداية : أحد إخوة بني الداية الخمسة ، وكان أخوهم « مجد الدين ابن الداية » شقيق نور الدين محمود في الرضاعة ، ولهذا حظي هو و اخوته بمكانة كبيرة لدي نور الدين محمود ، وسلم إليهم أكثر القلاع ، فولي سابق الدين عثمان « تل باشر » . كما عهد إليه بقيادة الجيوش بعد وفاة مجد الدين بن الداية في عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٠ م ، وسوف نذكر المزيد عن تطور أحوال « سابق الدين » في فصل الدولة الأيوبية . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٩ ، ٥٩٣ ؛ ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٠٤ ، ١٠٧)

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٩ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣ ـ ٤ .

إلى قلعة جعبر فنزل عليها وضايقها، فلم يكن له فيها حيلة.

ثم قال ابن أبي طى فى ملك نور الدين للقلعة: «فأخذ الملك العادل نور الدين فى التضييق على الملك شهاب الدين مالك العقيلى صاحب قلعة جعبر، وراسل «ابنه»

(١) فى تسليم القلعة على أن يعطيه جميع ما يقترحه واقترح أن يسلم إليه عوضا عنها «سروج»(٢)، و«الملوحة»(٣)، والباب (بزاغة)(٤)، وعشرين ألف دينار. ووقع الاتفاق وسلمت إلى الملك العادل نور الدين يوم السبت نصف المحرم من شهور هذه السنة. وخلع الملك العادل على الملك شهاب الدين العقيلى وسلم إليه جميع ما قرر له. وزالت مملكة بنى عقيل عن قلعة جعبر وكانت مدة ملكهم لها ثمان وثمانين سنة، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يحول»(٥).

وختم ابن أبي طى روايته بذكر الإجراءات الإدارية الجديدة التى ترتبت على ملك نور الدين للقلعة، ومنها التعويضات التى منحها «لشهاب الدين مالك العقيلي»، وما ترتب عليها من تغيرات فى ولايات هذه المناطق وتعويض أصحابها ببلاد أخرى، فقال: «وسلم الملك العادل نور الدين قلعة جعبر إلى الأمير مجد الدين ابن الداية نائب السلطة بحلب، فولاها لأخيه «شمس الدين على بن الداية»(٦)، وعوض الملك العادل نور الدين

---

(١) هو عز الدين عيسي بن شهاب الدين مالك. (ابن الفرات : تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤).

(٢) سَروج : بلدة قريبة من حران من ديار مُضر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢١٦).

(٣) الملوحة : قرية كبيرة من قرى حلب . (المصدر نفسه ،ج ٥ ، ص ١٩٥) .

(٤) باب بزاعة : بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب ، بينها وبين منبج نحو ميلين ، وإلي حلب عشرة أميال . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٣) .

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٧ .

(٦) شمس الدين علي بن الداية : أحد أخوة بني الداية ، أبقاه نور الدين محمود علي ولايات أخيه « مجد الدين بن الداية بعد وفاته في عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م ، وكانت تشمل حلب و حارم وقلعة جعبر ، وصار أكبر أمراء نور الدين محمود . (ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ٥٩٠) .

للأمير «حسام الدين غازى بن أيوب بن حسان»[١] عن سروج «بالس»[٢] وسلمها إليه، وكتب الملك العادل نور الدين سروج ملكا للملك شهاب الدين العقيلى، وسلم الملك العادل نور الدين «تل باشر» إلى الأمير سابق الدين عثمان بن الداية عوض بالس»[٣].

وقد اتفق ابن أبى طى فى معظم أحداث روايته عن ملك نور الدين محمود قلعة جعبر، مع المؤرخ «ابن الأثير»[٤]، و أضاف ابن أبى طى فى الجزء الأخير من روايته بعض التغييرات التى ترتبت على التعويضات التى حصل عليها الأمير شهاب الدين مالك العقيلى، كما أورد بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى جانبا من هذه التغييرات[٥].

كان هذا عرضا لبعض توسعات الدولة الأتابكية الإسلامية فى الشام فى عهد الملك العادل نور الدين محمود من خلال كتابات المؤرخ ابن أبى طى الحلبى. وكما رأينا فقد ظهر بصورة واضحة فى خلال هذا الموضوع مدى اعتماد ابن أبى طى الحلبى فى بعض كتاباته على كتاب «تاريخ دمشق» للمؤرخ ابن القلانسى ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، وظهر ذلك من خلال اتفاق الأحداث التى أوردها ابن أبى طى مع كتابات ابن القلانسى، خاصة عند عرضه للتفاصيل التى تتعلق بتاريخ دمشق أو علاقاتها الخارجية، فلاحظنا اتفاق كتاباته

---

(١) هو حسام الدين غازي بن أيوب بن حسان بن كمشتكين البعلبكي : كان والده واليا علي « منبج » ، فتولاها حسام الدين بعد وفاة والده في عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م ، ثم ساءت علاقته مع نور الدين محمود ، فأرسل إليه في عام ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م جيشا هزمه ، وأخذ منه منبج وقلعتها ، وقلعة الجسر ، وأبقي معه « سروج » (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦١ ، ٤٦٤) .

(٢) بالس : مدينة قديمة علي شاطئ الفرات بين حلب والرقة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ٣٢٨ ؛ ابن شداد : نفس المصدر ، ص ١٤) .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٧ ـ ١٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٩٩ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٥ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ،ج٣، ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ١٦٢ ؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٢ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٣ ـ ٤ .

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ٢ ، ٢١ ـ ٢٢ ، ١٠٤ .

معه عند ذكره لأحداث حصار قوات دمشق مدينة بعلبك فى عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، كما اتفق ابن أبى طى معه فى ذكره لمعظم تفاصيل ملك نور الدين محمود دمشق فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م، وفى ملك نور الدين بعلبك فى عام ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م

وبدا واضحا هذا الاتفاق من خلال عرض ابن أبى طى لنفس الأفكار التى أوردها ابن القلانسى، كما اتفقت بعض جمله تماما معه، وهذا الاتفاق كشف لنا عن مصدر مؤكد من المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها ابن أبى طى فى كتاباته هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ظهر لنا أيضا أن **منهج ابن أبى طى** فى اختيار المصادر الإسلامية التى يستقى منها معلوماته كان أساسه معاصره مؤلفه للأحداث التى يكتب عنها، كما كان ينتقى أيضا المصادر التى تخصصت فى تاريخ بلد أو دولة، ولهذا جاءت معظم كتاباته تحوى الكثير من التفاصيل التى لم ترد فى كثير من المصادر الأخرى، و سوف يتأكد لنا هذا المنهج طوال هذه الدراسة .

كذلك اتفقت بعض كتابات ابن أبى طى فى مضمونها العام مع كتابات «ابن الأثير»، وذلك فى عرضه لتفاصيل ملك نور الدين محمود لحصن شيزر فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، وقلعة جعبر فى عام ٥٦٤ هـ/ ٢١٦٩ م.

كما **انفرد ابن أبى طى** بكتابة بعض أحداث ملك نور الدين محمود لحصن شيزر وقلعة جعبر.

علاقة نور الدين محمود مع الخلافة العباسية:

تناول **ابن أبى طى** فى كتاباته العلاقة بين نور الدين محمود والخلافة العباسية ووصلنا منها بعض ملامح هذه العلاقة، وقد رأينا قبل البدء فى عرض هذه الكتابات أن نوضح تطور أحوال الخلافة العباسية، وطبيعة العلاقة بين نور الدين محمود والخلافة.

بدأ الضعف يسرى فى كيان الخلافة العباسية فى العراق (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/ ٧٥٠ ـ

١٢٥٨ م) ـ كما أوضحنا من قبل فى الفصل الخاص بكتابات ابن أبى طى عن الخلافة العباسية ـ بعد أقل من قرن من قيامها، ونتيجة لذلك فقدت الخلافة زعامتها السياسية على كثير من بلدان العالم الإسلامى، كما تمثل هذا الضعف أيضا فى سيطرة دول خارجية على مقاليد الحكم فى الخلافة العباسية، فقامت بها الدولة البويهية (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م)، ثم دولة السلاجقة (٤٤٧ ـ ٥٥٢ هـ / ١٠٥٥ ـ ١١٥٧ م).

وعلى الرغم من هذا الضعف السياسى التى كانت عليه الخلافة، إلا أن فكرة سيادة الخليفة العباسى على الممالك الإسلامية ظلت ماثلة فى الأذهان، ولم يفقد معنى الخلافة ما كان له من القوة والسلطان[١]، ويرجع ذلك إلى رغبة المسلمين فى الاحتفاظ بها لاعتقادهم أنها نظام لابد منه لإصلاح العالم الإسلامى[٢].

وعلى هذا الأساس اهتم الملك العادل نور الدين محمود بإقامة علاقات وطيدة مع الخلافة العباسية، وذلك ليضفى على شخصه وعلى ما يقوم به من أعمال صبغة شرعية[٣]، وقد علق المؤرخ «ابن الجوزي» على سياسته تلك بقوله أنه كان: «يتدين بطاعة الخلافة»[٤]، ومن ناحية أخرى وجدت الخلافة العباسية فى نور الدين محمود بعد الانتصارات العديدة التى حققها على الصعيدين الإسلامى و الصليبى، القوة القادرة على تحقيق بعض أهدافها، ومنها تحرير مصر من سيطرة الخلافة الفاطمية الشيعية (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١ م)[٥].

وقد بدأ اهتمام الخلافة العباسية بعودة مصر إلى تبعيتها منذ عهد الخليفة المقتفى لأمر الله (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ / ١١٣٦ ـ ١١٦٠ م)، وكان هذا الاهتمام جزءا من التغيير الذى

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ، ص ٨٤ .
(٢) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٢٦ .
(٣) سعيد عاشور : بحوث في تاريخ الإسلام ، ص ٤٦٨ .
(٤) المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٤٧ .
(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩ .

بدأت تشهده الخلافة بعد وفاة السلطان السلجوقى «مسعود بن محمد» (٥٢٨ ـ ٥٤٧ هـ / ١١٣٣ ـ ١١٥٢ م)، حيث انتهت بوفاته ـ كما ذكر بعض المؤرخين ـ «سعادة البيت السلجوقي»[١]، وبدأت الخلافة العباسية تستقل تدريجيا بالحكم من دون السلاطين السلاجقة، وانفرد الخليفة المقتفى كما ذكر «ابن كثير» بالعراق للمرة الأولى منذ عهد الدولة البويهية[٢]،واهتم بإعادة البلاد التى استقلت عن الخلافة،فكلف نور الدين محمود بغزو مصر، وأرسل إليه عهدا بولايتها فى عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م[٣]. ثم تجدد تكليف الخلافة لنور الدين محمود بغزو مصر فى عهد الخليفة«المستنجد بالله»[٤] (٥٥٥ـ٥٦٦هـ / ١١٦٠ـ١١٧١م)،وراسله وزيره «عون الدين بن هبيرة» فى هذا الأمر[٥].

وقد أضاف ابن أبى طى المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، فأوضح اهتمام الخليفة المستنجد بالله بإقامة الدعوة العباسية فى مصر، خاصة بعد أن صارت الوزارة الفاطمية فى مصر منذ عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م تتبع فعليا نور الدين محمود، منذ أن تولاها أحد قواده، وهو «صلاح الدين الأيوبي»،

ولهذا راسل الخليفة المستنجد بالله نور الدين محمود فى عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م معاتبا له على تأخير إعلان الخطبة العباسية فىْ مصر، وإنهاء الحكم الفاطمى، فأرسل نور الدين

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٢؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٧، ص ٥٢ .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٥٥ .

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٨ ؛ السيوطي : الخلفاء ، ص ٤٤٠ .

(٤) هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله ، ولد في عام ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، وبويع له بالخلافة بعد وفاة والده في عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م . تولي الوزارة له وزير والده « عون الدين بن هبيرة » ، وبعد وفاته في عام ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م ناب في الوزارة ولده « محمد بن يحيى بن هبيرة » ، ثم تولاها « شرف الدين ابن البلدي » . وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة ، وأسقط الكثير من المكوس و الضرائب ، وتوفي في ربيع الآخر عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م .(ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٠، ص ١٩٢ ـ ١٩٣،٢٣٦؛ ابن الأثير: الباهر، ص ١٥٠ ـ ١٥٢؛ الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤، ص ٣٥٨ـ ٣٥٩؛ ابن طباطبا : الفخري ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠١ (طبعة دار الكتب) .

رسالة إلى صلاح الدين يطالبه فيها بتحقيق هدف الخلافة، وقال ابن أبى طى فى ذلك: «أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه{في}[١] تأخير إقامة الدعوة له بمصر. فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمله رسالة منها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور «الفوت»[٢]، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته»[٣].

وقد اتفق ابن أبى طى فيما ذكره عن معاتبة الخليفة المستنجد بالله نور الدين محمود على تأخير إقامة الخطبة العباسية فى مصر، وإرسال نور الدين نجم الدين أيوب إلى مصر لهذا الأمر مع المؤرخ «العماد الأصفهاني»، ومن الجدير بالذكر أن رواية العماد الأصفهانى فى هذا الجزء لم ترد فى الملخص الذى وضعه «البنداري» لكتابه البرق الشامى، وإنما اقتبسها «ابن كثير» من كتاب العماد، واعتمدنا على هذا الاقتباس فى تقييم رواية ابن أبى طى[٤].

و تناول هذا الجزء من الموضوع أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بالعماد وبابن أبى طى[٥]. وانفرد ابن أبى طى بنص الرسالة التى أرسلها نور الدين محمود إلى صلاح الدين فى مصر.

واستمر اهتمام الخلافة العباسية بأمر إقامة الخطبة العباسية فى مصر قائما أيضا فى عهد

---

(١) في طبعة « دار الجيل » : « من » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٣) .

(٢) الفَوْتُ : فات الأمر أي ذهب ، ويطلق أيضا علي الموت الفجائي . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ (طبعة دار الكتب) .

(٤) قال ابن كثير : « قال العماد الكاتب ... وصي نور الدين (نجم الدين أيوب) أن يأمر ابنه صلاح الدين أن يخطب بمصر للخليفة المستنجد بالله العباسي ، وذلك أن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك » (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٠) .

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٨٩؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣، ص ٣١٦ .

الخليفة «المستضيء بأمر الله»[١] (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ٧٠ ـ ١١٧١ ـ ١١٨٠ م)، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر ذلك قائلا: «ولما ولي ابنه «المستضيء» أقبل أيضا على مكاتبة نور الدين فيه»[٢]. كما أشار لهذا أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبي طي[٣].

ثم تمكن نور الدين محمود من تنفيذ ما كلفته به الخلافة، بفضل جهود صلاح الدين، وأقيمت الخطبة العباسية في مصر في المحرم عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م، بعد انقطاع دام أكثر من قرنين، وراسل نور الدين الخلافة مبشرا بهذا الأمر العظيم. فقال ابن أبي طي: «ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد» شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون»[٤] وسار شهاب الدين بن أبي عصرون... حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده. ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحُيي بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح

---

(١) هو الحسن بن المستنجد بالله . ولد في شهر شعبان عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤٢م، وبويع له بالخلافة بعد وفاة والده « المستنجد بالله » في ربيع الآخر عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٧١ م . وبعد ولايته أمر برفع المكوس ورد المظالم، وأظهر من العدل والكرم الكثير، وكان دائم البذل للمال، فخلع على أرباب الدولة، ومنح العلماء و الفقراء أموالا كثيرة ». وفي عهده عادت الخُطبة العباسية تقام في عدة بلاد ومنها مصر ـ اليمن ـ برقة . وتولي الوزارة في عهده « عضد الدين بن رئيس الرؤساء »، ثم « ظهير الدين ابن العطار » . وتوفي في شوال عام ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م . (ابن الجوزي : المنتظم، ج ١٠، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤، ٢٣٦ ؛ ابن طباطبا : الفخري، ص ٣١٩ ـ ٣٢١ ؛ السيوطي : الخلفاء، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٨ .

(٣) النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٤٤ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ١٦١ ؛ الحنبلي : المصدر السابق، ص ١٠٠ .

(٤) هو أبو سعد عبد الله بن أبي عُصرون الملقب شرف الدين : ولد في عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م، توطدت علاقته مع نور الدين محمود، وبنى له العديد من المدارس في حلب وحمص وبعلبك، وتولي القضاء في العديد من البلاد، ومن بينها مصر في عام ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م، وتوفي عام ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م .(ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٣ ـ ٥٥ ؛ الذهبي : العبر، ج ٣، ص ٩٠ ـ ٩١؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٨٣) .

الدين»[١].

وقد اتفق ابن أبى طى فيما ذكره عن إيفاد نور الدين محمود رسوله إلى الخلافة العباسية مع العماد الأصفهانى[٢]، أما ما ذكره عن مظاهر استقبال رسول نور الدين محمود فى بغداد، فلم نجده ضمن كتابات العماد التى اختصرها «البنداري» من كتابه البرق الشامى، ولعل ذلك فقد لاحظنا اتفاق الأسلوب الذى كتب به ابن أبى طى روايته عن هذا الجزء أسلوب العماد الأصفهانى، حيث استخدم ابن أبى طى على غير عادته «السجع» فى بعض عباراته، وهذا الأسلوب اشتهر به العماد فى معظم كتاباته.

كما اتفق ابن أبى طى فى المعنى العام لروايته عن مظاهر استقبال رسول نور الدين محمود فى بغداد، وإرسال التشريفات إلى نور الدين محمود وصلاح الدين مع «ابن الجوزي» و «ابن الأثير»[٣]، كذلك اتفق «ابن الفرات» مع ابن أبى طى، وعرض نفس أسلوبه فى هذا الجزء[٤].

و فى عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م عاد رسول نور الدين محمود من بغداد، وأوفد معه الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله عقدا بولاية نور الدين محمود منطقتى «درب هارون و«صريفين[٥]»، وكانت هاتان المنطقتان ـ كما أوضح العماد الأصفهانى ـ قد أنعمت بهما

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٠ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٥٠٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١٦ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق،ج٤، ق١، ص ١٧٤

(٣) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٣٧ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١١٢ .وانظر أيضا:ابن واصل : المصدر السابق،ج١ ،ص٢١٨ ؛المقريزي:السلوك،ج١،ق١،ص ٤٤

(٤) قال ابن الفرات في ذلك : « رحل شهاب الدين بن أبي عصرون .... حتى وصل إلي بغداد ، فخرج الناس إلي تلقيه مكرمين لخطير وروده ، معظمين بجليل مورده ، ونثرت عليه دنانير الإنعام وحبي بكل إكرام ... أرسلت التشريفات إلي ... نور الدين .. وصلاح الدين » . (تاريخ الدول والملوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨) .

(٥) صَريفين : ويقال أيضا صَرِيفون . توجد عدة قرى بالعراق تحمل نفس هذا الاسم . فتوجد قرية

الخلافة العباسية من قبل على والده عماد الدين زنكى، «فسأل نور الدين إحياء هذا الرسم فى حقه فأنعم بهما المستضئ عليه»، كما أرسل إليه الخليفة أيضا خمسين دينارا تزن خمسمائة دينار، وهى من الدنانير التى نثرت فى بغداد عند وصول البشرى بإقامة الخطبة العباسية فى مصر[١].

وذكر ابن أبى طى هذا الموضوع، واتفق فيه مع العماد فقال: **«وفيها (٥٦٨ هـ) وصل شهاب الدين بن أبى عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، وخمسين دينارا من دنانير النثار التى نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة فى مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير»**[٢].

كذلك قام نور الدين محمود بإيفاد بعض الذخائر الفاطمية إلى الخليفة المستضئ فى عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م، وذكر العماد أن من بين هذه الذخائر كانت «الحمارة العتابية

[٣]»[٤]، **وقد اتفق ابن أبى طى مع العماد فى ذلك**، وقال ضمن ذكره لجملة الذخائر الفاطمية التى أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين: **«ومن ذلك حمارة.. فأرسلت.. إلى الخليفة فى جملة هدايا»**[٥]، و قد وصلت هدايا نور الدين محمود إلى الخلافة العباسية فى رجب عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م[٦].

قرب « عكبراء وأوانا » على ضفة نهر دُجيل ، وأخرى ضمن قرى واسط . كما توجد قرية أخرى ضمن قري الكوفة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٧٢ . وانظر أيضا : أبن الأثير : المصدر السابق ج ٩ ، ص ١٢٢ ؛ أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٤٩ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢، ص ٧٩١ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٩ .

(٣) الحمارة العتابية : وهو : « حمار مخطط كأن جلده الثوب العتابي » . (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ص ٥٢٦ .

(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦ .

(٦) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ .

كان وصول هدايا نور الدين محمود إلى الخلافة العباسية آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن علاقة نور الدين محمود مع الخلافة. وقد ظهر بصورة واضحة خلال كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع مصدرا آخر من المصادر المهمة التى اعتمد عليها كثيرا فى كتاباته، وهو كتاب «البرق الشامي» للمؤرخ «العماد الكاتب الأصفهاني» ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م، وهذا الكتاب لم يصل إلينا كاملا، ووصلنا ملخصا له أعده «الفتح بن على البنداري»، وسماه «سنا البرق الشامي» وقد اعتمدنا على هذا الملخص فى ملاحظة مدى اتفاق كتابات ابن أبى طى مع كتابات العماد الأصفهانى. وقد لاحظنا اعتماد ابن أبى طى كثيرا على كتابات العماد، وسيظهر هذا بوضوح عند تناولنا لكتابات ابن أبى طى عن تاريخ الدولة الأيوبية، ويرجع ذلك إلى معاصرة العماد لكثير من الأحداث، خاصة الأحداث التى تتعلق بآخر عشر سنوات من تاريخ نور الدين محمود، و ومعظم تاريخ الدولة الأيوبية، وفى هذا تأكيد لما ذكرناه من قبل عن منهج ابن أبى طى فى اختيار مصادره.

و قد اعتمد ابن أبى طى على كتابات العماد فى معظم أحداث هذا الموضوع، و تبين لنا ذلك من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى و العماد، فلاحظنا اتفاق ابن أبى طى معه عند ذكره لاهتمام الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المستنجد بالله بعودة مصر ولاية تابعة

للخلافة، ومعاتبة الخليفة المستنجد بالله نور الدين محمود بسبب تأخير إتمام هذا الأمر، كما اتفق معه ابن أبى طى فى كتابة الأحداث التى تلت إقامة الخطبة العباسية فى مصر فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، عند ذكره إرسال نور الدين محمود رسوله إلى الخلافة مبشرا بعودة مصر إلى تبعية الخلافة العباسية، وأيضا عند ذكره الهدايا المتبادلة بين الخلافة العباسية و نور الدين محمود فى عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م.

كما لاحظنا انفراد ابن أبى طى بكتابة بعض أحداث هذا الموضوع، وذلك عند ذكره لنص الرسالة التى أرسلها نور الدين إلى صلاح الدين فى مصر ليطالبه بإقامة الخطبة العباسية، وأيضا عند ذكره لمظاهر استقبال رسول نور الدين فى بغداد. وفى اعتقادنا هناك

احتمال وارد أن كتابات العماد الأصفهانى كانت أصول الكتابات التى انفرد به ابن أبى طى، خاصة أننا لاحظنا اتفاق أسلوب ابن أبى طى عند كتابته مظاهر استقبال رسول نور الدين محمود فى بغداد مع أسلوب العماد.

علاقة نور الدين محمود مع أخوته:

تناول ابن أبى طى فى كتاباته علاقة نور الدين محمود مع أخوته، ووصلنا بعض ملامح هذه العلاقة من خلال عرضه لموضوع ولاية العهد بعد نور الدين محمود، وتوضيحه التغييرات التى طرأت عليه.

ولاية العهد بعد نور الدين محمود:

لم يكن لدى نور الدين محمود وريث من صلبه، يرث مُلك الدولة الأتابكية فى الشام من بعده، حتى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م حيث كان قد أنجب ولده «أحمد» فى حمص فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م، ولكنه لم يعش طويلا[١]، ثم أنجب ولده الثانى «إسماعيل» فى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م[٢]، ولهذا اضطر نور الدين محمود عندما داهمه مرض شديد فى حلب فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م أن يعين وزيرا لمُلك الدولة من بعده، فعهد إلى أخيه الأصغر «نصرة الدين أمير أميران» بولاية الدولة من بعده، ثم ما لبث أن شفى نور الدين من مرضه، وقام بإلغاء عهده إلى أخيه، لأنه كان قد حاول أثناء مرضه الاستيلاء على حلب[٣].

وقد وصلتنا من كتابات ابن أبى طى عن هذا الموضوع الروايات التى ذكرها عنه كل من أبى شامة، وابن الفرات.

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٦ .

(٣) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر. (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٥؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩، ص ٦٧؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢، ص ٣٠٨ـ٣١٠).

وكان أبو شامة قد أورد عنه ملخصا لأحداث مرض نور الدين محمود، واتفق ابن أبى طى فيه مع ابن القلانسى خاصة فى تحديد تاريخ مرض نور الدين محمود فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م[١]، وكان ابن الأثير وبعض المؤرخين قد أوردوا أحداث مرضه فى عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م[٢]. قال ابن أبى طى: «وسار (نور الدين محمود) إلى سرمين لأنه بلغه حركة الفرنج، فاعترضه هناك مرض أشفى منه، فأحضر شيركوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه «نصرة الدين أمير أميران»...، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب فى مدة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى «حران[٣]»[٤].

ثم أورد ابن الفرات تفاصيل الاضطرابات التى وقعت فى حلب أثناء مرض نور الدين محمود على أثر حصار نصرة الدين أمير أميران قلعة حلب، وعلى الرغم من أنه «لم يصرح» باعتماده على كتابات ابن أبى طى، إلا أنه أورد أحداثا مهمة قام بها والد ابن أبى طى، مما يوضح أنه اقتبسها من كتابات ابن أبى طى، ولهذا وجدنا أنه من المهم أن نضيفها هنا[٥].

قال ابن الفرات: «اشتد به المرض وأرجف الناس بموته، واستولى الأمير مجد الدين بن الداية واخوته على الأمر بحلب، وأخذوا فى ترتيب الملك للأمير مجد الدين، وبلغ ذلك جماعة الحلبيين، فكرهوا أولاد المجدية لمكان المذهب، وراسلوا الأمير نصرة الدين أمير أميران وكان نازلا على «زردنا» وأحضروه إلى حلب، وكسروا له «باب قنسرين»، وتولى

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق، ج ٩ ، ص ٦٧ . وانظر أيضا : ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٠٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ، ص ١٣٠ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٣) حرّان : مدينة عظيمة مشهورة ، تقع علي طريق الموصل والشام وبلاد الروم ، و تعد قصبة ديار مُضر . (المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٣٥) .

(٤) أبو شامة : الروضتين، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ ؛ عيون الروضتين، ق ١ ، ص ٢٤٦ـ٢٤٧

(٥) أورد كلود كاهن تفاصيل هذه الأحداث عن ابن الفرات أيضا انظر une chronique chiite au temps des croisades , pp.٢٦٦-٢٦٧.

كسره «مبارك الحجار»، و «فارس دليل»، «وحارم ابن الملاح»، وادخلوه إلى حلب، ونزل فى دار «صلاح الدين» فى رأس درب مطر

التى إلى جانب مسجد «ابن الأستر»[١]، وأجمع إليه الحلبيون وحلفوا له»[٢].

ثم عرض ابن الفرات دور والد ابن أبى طى فى الأحداث فى ذلك الوقت، وأوضح أنه كان يرأس زعامة الشيعة فى حلب، فقال: «وولوا استيفا اليمين وتحليف من يحلف «أبا طى حميد بن ظافر بن على الغسانى الحلبى المعروف بالنجار» وألبس نصرة الدين القبا، واءمن الجماعة باتباع أمره، وكان رأس الشيعة بحلب، فاستحلف الناس فى مسجد «المحصب»[٣] بالرحبة الكبيرة»[٤].

ثم ذكر ابن الفرات تفاصيل الاضطرابات التى أحدثها الشيعة فى حلب بقيادة والد ابن أبى طى، فقال: «ولم يكن للحلبيين هم إلا تكسير... الفقاع، فلم يتركوا بالمدينة حانوت فقاع إلا كسروا ما فيه، وأذنوا فى جميع مواذن حلب «بحى على خير العمل» واحضر الأمير نصرة الدين «لأبى على بن العجمي» ليحلف، فامتنع، فضربه «حميد النجار بقدوم كان معه، وأجازه الأمير نصرة الدين»[٥].

واستمرت الاضطرابات فى حلب قائمة، وطلب نصرة الدين من مجد الدين بن الداية الإذن بدخوله قلعة حلب فرفض، فقام نصرة الدين ومن انضم إليه من الشيعة بحصار قلعة حلب، قال ابن الفرات: «وراسل الأمير نصرة الدين الأمير مجد الدين بن الداية ـ نايب

---

(١) مسجد ابن الأستر : ذكره ابن شداد ضمن مساجد حلب . (الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٠) .

(٢) المصدر السابق ، م ٣ ، ج ٥ ، ورقة ١٠٩ .

(٣) مسجد المحصّب : يقال أنه بنى في زمان أحد العمرين إما عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز (الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٦) .

(٤) المصدر السابق ، م ٣ ، ج ٥ ، ورقة ١٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ورقة ١٠٩ ـ ١١٠ .

السلطنة بحلب ـ فى أن يأذن له فى الصعود إلى خدمة أخيه الملك العادل بالقلعة والنظر إليه، فامتنع الأمير مجد الدين من ذلك وأعاد الرسالة، ولم يمكنه من الصعود، وخرج الأمير نصرة الدين ومعه جماعة الحلبيين، وأخذوا فى حصار القلعة ومقاتلة من فيها، وتقاذف الناس بالحجارة والنشاب وغلق الأمير مجد الدين بن الداية باب القلعة وركب السور وأخذ فى الحرب، وذلك فى يوم الخميس سابع عشرى شوال المبارك من شهور هذه السنة»[1].

وأقيمت خلال تلك الاضطرابات فى حلب، الخطبة فى يوم الجمعة حسب شعائر الشيعة، بإمامة والد ابن أبى طى، قال ابن الفرات: «فلما كان يوم الجمعة منع الحلبيون خطيب أهل السنة من الخطابة، وأحضروا الشيخ الخطيب «أبا عبد الله أبى الفتح بن أبى أسامة»[2]، أحد رؤوس الشيعة، فخطب بالبياض، ودعى «نصرة الدين» وصلى على الإمام المنتظر، خلف «حميد النجار، رأس الشيعة»[3].

ثم أورد ابن الفرات بعد ذلك كلمة «قال» وأكمل النص، وقصد بها والد ابن أبى طى، وروى تفاصيل تتعلق بالشيخ ابن أبى أسامة الخطيب الشيعى الذى ألقى خطبة الجمعة، قال ابن الفرات: «قال: كان الشيخ أبو عبد الله بن أبى أسامة كثيرا ما يسمعنى الخطبة التى أءلقها، وهى فى غاية الحسن والجودة، ويقول لى منيتى أن أخطب على المنبر ولو قبل موتى بيوم، فلما دخل نصرة الدين إلى حلب حضر فى ليلة الجمعة قوله، فقلت والله لأبلغه مراده، فلما كان عند الصباح خرجت إليه وقلت قد قضى الله شهوتك فتخير خطبة لتخطب بها، ثم أحضرته إلى الجامع وخطب ذلك اليوم فاءبكى العيون واءجل القلوب، ولما صعد المنبر وخطب ونزل عنه سجد فيه شكرا. قال حميد النجار: ومن عجيب ما جرى من

---

(١) المصدر نفسه، ورقة ١١٠ .

(٢) أشار إليه ابن شداد وقال عنه « أبا أسامة خطيب حلب » (الأعلاق الخطيرة، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١)

(٣) المصدر السابق، م ٣ ، ج ٥ ، ورقة ١١٠ .

ساعة نزوله من المنبر مرض واشتد به المرض ومات، بعد أن قضى الله شهوته»[١].

ثم ذكر ابن الفرات انتهاء الاضطرابات فى حلب بعد تأكد الشيعة ونصرة الدين أمير أميران من خبر شفاء نور الدين محمود، ومغادرة نصرة الدين ومن عاونه من الشيعة حلب إلى حران، ومن ضمنهم والد ابن أبى طى، وأسباب ذلك، فقال: «وجد الحلبيون أصحاب الأمير نصرة الدين فى قتال أهل قلعة حلب، ووجد الملك العادل نور الدين.... من مرضه، وجلس فى طاقة المنظرة المطلة على حلب فلم يصدق الأمير نصرة الدين ذلك، وكان بحلب من أجناد القلعة رجل... فقال له ابن... اشتبه الناس بالملك العادل نور الدين، فقال الحلبيون هذا فلان، فأرسل الأمير نصرة الدين «الحاجب» فرأى الملك العادل وعرفه وعاد إلى نصرة الدين وأخبره أنه الملك العادل، فتقدم إلى تحت المنظرة، وقبل الأرض، وأرسل إلى الملك العادل نور الدين يعتذر من فعله، وأنه إنما حمله على فعله خوفه أن يخرج الأمر عن يده، فقبل الملك العادل نور الدين عذره ووقع له بحران فتوجه إليها يوم السبت سادس ذى القعدة من شهور هذه السنة، وخرج معه جماعة من وجوه الحلبيين رؤوس الشيعة الذين عاونوه وقاتلوا معه على حصار قلعة حلب خوفا من المجدية والملك العادل نور الدين، وكان الحلبيون قد افسدوا

وخربوا المدارس واهانوا جماعة ممن كان فيها وفعلوا فى ذلك الوقت كل قبيح، وكان قد خرج فى صحبة الامير نصرة الدين فى من خرج حميد النجار رأس الشيعة، والد صاحب التاريخ، فولاه حسبة حران وجرى له فيها العجايب»[٢].

ثم تعرض نور الدين محمود للمرض مرة ثانية فى ذى الحجة عام ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م، وأوضح «ابن القلانسي» أنه عهد فى هذه المرة إلى أخيه «قطب الدين مودود بن زنكي»[٣]

---

(١) المصدر نفسه، ورقة ١١٠.

(٢) المصدر السابق، م ٣، ج ٥، ورقة ١١٠.

(٣) قطب الدين مودود بن زنكي بن أق سنقر: تولي الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين في عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م. وكان حسن السيرة عادلا، تولي الوزارة في عهده الوزير جمال الدين الأصفهاني، ثم

أمير الموصل بولاية الدولة من بعده[١]. وقد وصلنا من رواية ابن أبى طى ما يوضح اختيار نور الدين محمود أخيه قطب الدين مودود واليا من بعده، واتفق فى ذلك مع ابن القلانسى فقال: «وجعل ولى عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل»[٢].

ومن الملاحظ أن ابن أبى طى لم يشر أثناء تناوله لموضوع اختيار نور الدين محمود أخيه قطب الدين مودود إلى مرض نور الدين محمود الثانى فى دمشق فى عام ٥٥٣هـ / ١١٥٩ م، وأورد هذا التغيير فى ولاية العهد بعد انتهائه من ذكر أحداث مرض نور الدين الأول فى حلب عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، ومن الواضح أن ابن أبى طى لم يشر إلى مرض نور الدين الثانى فى أصول كتاباته، حيث نقده «أبو شامة» ـ وهو المصدر الذى أخذنا عنه رواية ابن أبى طى فى هذا الموضوع ـ بعد أن أورد نص روايته قائلا: «كأن ابن أبى طى جعل المرضتين واحدة بحلب، وأبو يعلى (أى ابن القلانسى) ذكر أن الأولى بحلب، والثانية بدمشق وهو أصح»[٣].

ثم تناول ابن أبى طى الدور الذى قام به «مجد الدين بن الداية» ـ نائب نور الدين محمود فى حلب ـ خلال فترة مرض نور الدين محمود، فقال: «وكان مجد الدين طمع فى الملك لنفسه، فتحزم لأمره، وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والداخلين إليها»[٤].

وقد لاحظنا اتفاق ابن أبى طى فيما ذكره عن قيام مجد الدين بن الداية بتفتيش الداخلين و الخارجين من حلب مع ابن القلانسى، ولكنه اختلف مع ابن القلانسى فى

اختلف معه وقبض عليه، وعاونه بعده الأمير علي كجك، وتوفي قطب الدين في عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م .(ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(١) المصدر السابق، ص ٥٤٢ .

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٢٧٦ ؛ عيون الروضتين، ق ١، ص ٢٤٧ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٦ .

توضيح دوافع مجد الدين بن الداية من هذه الإجراءات، فبينما أوضح ابن القلانسى أنه كان يهدف حفظ الأمن فى حلب، وأنه نجح بالفعل فى كشف مخطط يرتب لدخول «نصرة الدين أمير أميران» إلى حلب[١]، برر ابن أبى طى جهود مجد الدين هذه بأنه كان طامعا فى ملك حلب.

وفى حقيقة الأمر فقد استوقفنا رأى ابن أبى طى عن مجد الدين ابن الداية، وداخلنا الشك حول حقيقة دوافعه من كتابة هذا الرأى. ووجدنا أنه قد يكون رأى ابن أبى طى جائزا إذا أخذنا فى الاعتبار أصله الحلبى، واعتماده على المصادر الحلبية التى لم تتوفر لغيره من المؤرخين، خاصة أنه انفرد بالكثير من أخبار حلب خلال كتاباته هذا من ناحية

ومن ناحية أخرى كان مجد الدين بن الداية نائبا عن نور الدين محمود فى حكم حلب وكان كما يقول «ابن العديم»: «مبسوط اليد فيها»، كما كان من أهم أمراء نور الدين محمود وكان يعتمد عليه كثيرا[٢]، ومن هنا ربما يكون رأى ابن أبى طى هذا جائزا إذا افترضنا أن مجد الدين بن الداية فكر فى استغلال مرض نور الدين محمود فى دمشق، وأخذ يرتب للاستيلاء على حلب، باعتبارها كانت ولايته، وداخله القلق على استمرار نيابته لها بعد وفاة نور الدين محمود.

وعلى العكس من ذلك هناك بعض الظواهر التى تجعلنا نشكك فى رأى ابن أبى طي، ومنها أننا لم نجد بين المؤرخين السابقين أو المعاصرين لابن أبى طى من يؤيد رأيه، وتناول رأيه المؤرخين اللاحقين به ومنهم «ابن الفرات»[٣].

كذلك لو فرضنا أن مجد الدين بن الداية خطط للاستيلاء على حلب، وشاع هذا الأمر بين أهل حلب، ومن هنا علم ابن أبى طى من مصادره من أهل حلب، فهل لم يعلم نور

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣ .

(٢) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٥ ، ص ٢٣٩٧ ، ج ١٠ ، ص ٤٣٦٨ .

(٣) أورد ابن الفرات نفس أسلوب ابن أبي طي (تاريخ الدول والملوك ، م ٣ ، ج ٦ ، ورقة ٥ ـ ٦) .

الدين محمود أيضا بعد شفائه بهذا ؟ ولكن الواضح من خلال الأحداث التاريخية أن العلاقة بين مجد الدين بن الداية و نور الدين محمود لم تتأثر بل زادت مكانة مجد الدين لديه ومنحه فضلا عن حلب حصن حارم وقلعة جعبر[١].

وهناك أيضا أمر مهم يجعلنا ننظر إلى رأى ابن أبى طى بشى من الحذر، وهو كره والده كما ذكرنا من قبل لبنى الداية، حيث كان يرى أنهم كانوا السبب الرئيسى وراء نفيه من حلب[٢]، ولهذا فاحتمال كره ابن أبى طى لبنى الداية أيضا واردا، وقد يكون والده مصدره عن هذه الرواية.

على أية حال شفى نور الدين محمود من مرضه، وواصل ابن أبى طى فى باقى روايته توضيح العلاقة بين نور الدين محمود وأخيه « قطب الدين مودود» بعد أن صار قطب الدين وليا لعهد نور الدين، وذكر أخبار وصول رسول قطب الدين إلى نور الدين

محمود، فقال ابن أبى طى فى ذلك: «لما وصل الوزير«جمال الدين»[٣] إلى حلب تلقاه موكب نور الدين وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة وأنزل فى دار «ابن الصوفي»[٤]، وأكرم

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٣٦٨ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٨ .

(٣) هو أبو جعفر محمد الملقب جمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني : خدم مع السلطان محمود بن محمد السلجوقي ، ثم عمل مع عماد الدين زنكي ، وولاه نصيبين والرحبة ، فأظهر كفاءة فو كل إليه الإشراف علي مملكته ، وبعد مقتل زنكي في عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م ، تولي الوزارة لولده « سيف الدين غازي » في الموصل . وكان مبالغا في الإنفاق حتى عرف بالجواد ، و قام بالكثير من أعمال الخير في المدينة المنورة ومكة المكرمة ، فكان يرسل كل عام الأموال و الكسوات إلي الفقراء بهما ، كما أجرى الماء إلي عرفات أثناء الحج من مكان بعيد . وتوفي في عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤ م ، ودفن في المدينة المنورة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص١٤٣ - ١٤٥؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٤٢-٣٤٤).

(٤) لم أجد بهذا الاسم سوي مؤيد الدين المسيب المعروف بابن الصوفي : تولي الوزارة في دمشق في عهد الأمير « مجير الدين آبق بن بوري » ، و توفي في ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م . (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ،

غاية الإكرام ؛ وأعيد إلى صاحبه شاكرا عن نور الدين»[١].

وقد اتفق ابن أبى طى فى المضمون العام لروايته عن وصول، رسول أمير الموصل و الحفاوة التى قوبل بها مع «ابن القلانسي»[٢]، وانفرد ابن أبى طى بذكر نزول الوزير «جمال الدين الأصفهاني» فى دار ابن الصوفى. كما اتفق أيضا «ابن الفرات» مع ابن أبى طى ،وأورد نفس أسلوبه فى هذا الجزء من الرواية[٣].

علاقة نور الدين محمود مع الشيعة فى حلب:

دخل المذهب الشيعى فى حلب ـ كما ذكرنا سابقا ـ قبل عهد الدولة الحمدانية (٣٣٣ ـ ٤٠٦ هـ/ ٩٣٥ ـ ١٠١٥ م)، وانتشر وقوى فى عهدهم[٤]، واستمرت سياسة التسامح مع الشيعة من قبل السلطات الحاكمة فى حلب حتى بعد انتهاء حكم الدولة الحمدانية، ثم قام الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٧٤ م) باتخاذ سياسة أخرى تجاه الشيعة للحد من انتشار مذهبهم فى حلب، فقام فى عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م بتغيير الآذان فى حلب ومنع المؤذنين من قولهم: «حى على خير العمل»، وصدرت أوامره بتنفيذ هذا القرار بشدة وصرامة[٥].

وقد كان والد ابن أبى طى فى ذلك الوقت من كبار زعماء الشيعة فى حلب، ولهذا اهتم ابن أبى طى بالكتابة فى هذا الموضوع، وأمدنا بالكثير من التفاصيل المهمة التى انفرد بها،

ص ٥٠٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦٤ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٥٤) .

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، م ٣ ، ج ٦ ، ورقة ٥ – ٦ .

(٤) السيد محسن الأمين : أعيان الشيعة ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١١ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٦٨ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ؛ C . CAHEN : op.cit , p. ٢٦٥

فأوضح فى رواية أوردها عن أبيه أن نور الدين محمود كان عند بداية ولايته لحلب فى عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، يبغى اتباع سياسة التسامح التى اتبعتها السياسات السابقة تجاه الشيعة فى حلب، وأنه لتأكيد ذلك قام بزيارة أحد المشاهد المقدسة لدى الشيعة فى حلب وهو مشهد الدكة، فقال: «حدثنى أبى قال: كان نور الدين فى ابتدا أمره..... على رأى أبيه فى إكرام الحلبيين، وتركهم والتظاهر بمذهبهم من الصلاة فى «شرقية الجامع»، و«أذان حى على خير العمل» فى منابر حلب، ومنارة الجامع والقلعة و الاستكثار منهم، وفى أثناء دخوله إلى حلب، ركب إلى مشهد الدكة زائر الضريح المدفون فيه، وأقام فيه بعض يوم وكتب على حايطه:

يا رب بالقدم التى أوطأتها من قاب (قوسين المحل ألا تطا)

وبحرمة القدم التى جعلت لها (كتف الموايد) بالرسالة سُلما

أنى جعلتها إليك وسيلتى فى يوم حشرى أن أخوض جهنما[1]

وكتب تحتها اسمه واسم أبيه، ودامت هذه الأبيات مكتوبة فى المشهد إلى أن وليه «ابن العجمي»[2] فمحاها»[3].

ثم أوضح ابن أبى طى بعد ذلك التأثيرات الداخلية والخارجية التى تعرض لها نور الدين محمود منذ ولايته حلب فى عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م والتى كان لها دور كبير بعد ذلك فى تغيير سياسته تجاه الشيعة فى عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٦ م، وبمعنى آخر أوضح أن

---

(١) واجهتنا صعوبة في قراءة هذه الأبيات ، وحاولنا كتاباتها حسب ما ظهر لنا منها .

(٢) هو الشيخ شرف الدين أبي طالب عبد الرحمن بن الحسن المعروف بابن العجمي : كان أول من قام بالتدريس في المدرسة الزجاجية بحلب ، وظل مدرسا بها إلي أن توفي بحلب في عام ٥٦١ هـ/ ٦٥ - ١١٦٦ م ، وكان شافعيا . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ورقة ٦٢ - ٦٣ .

قرار نور الدين محمود بمنع شعائر الشيعة لم يتم فجائيا وإنما استغرق التفكير فيه عامين ، وبدأ روايته بتوضيح الدور الذى لعبه كبار زعماء السنّة فى حلب، وانه لم يقتنع فى البداية برأيهم، قال ابن أبى طى: «وكان اجتمع إلى الملك العادل نور الدين جماعة أهل السنة من حلب والقاضي «ابن الشهرزورى الأعور» و«ابن الطرسوسي»، وقالوا له فى أمر الحلبيين أشيا فلم يقبلها»[١].

وبعد فشل هذه المحاولة، استمرت جهود «ابن الطرسوسي» الرامية إلى قمع المذهب الشيعى فى حلب، وحاول بعد ذلك التأثير على نور الدين محمود من خارج حلب فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م أيضا، حيث قام أثناء سفارته عن نور الدين محمود إلى دمشق لعقد مصاهرة سياسية بين حلب ودمشق، بمحاولة جذب «معين الدين إنر» ـ الذى كانت بيده مقاليد الأمور فى دمشق ـ إلى صف السنّة ؛ كذلك عمل أيضا على جذب الفقيه «برهان الدين البلخي» ـ الذى كان مقيما فى دمشق فى ذلك الوقت ـ ومن الواضح أن جهوده أثمرت معه حيث سيلعب الفقيه برهان الدين بعد ذلك دورا كبيرا فى منع شعائر الشيعة فى حلب فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م.

وقد انفرد ابن أبى طى بتفاصيل ذلك كله فى كتاباته عن هذا الموضوع، فقال: «فلما أراد (نور الدين محمود) الوصلة بينه وبين «خاتون بنت الملك معين الدين»، صاحب دمشق»[٢]، كان الرسول فيها «ابن الطرسوسي»، وكان الشيخ «برهان الدين على الفقيه الحنفى المعروف بالبلخي»[٣] مقيما بدمشق فاجتمع به ابن الطرسوسى رسول

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٦٣ ؛ C . CAHEN : op.cit, p. ٢٦٤

(٢) ترددت الرسل والمراسلات بين نور الدين محمود ومعين الدين إنر لإتمام عقد الزواج في شوال عام ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م ، وكتب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الخميس الثالث والعشرين من شوال . (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٤٥٠) .

(٣) هو الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي الحنفي نذيل دمشق ، أنشأ المدرسة البلخية ، وقام بالتدريس في المدرسة الصادرية بدمشق ، ثم أسند إليه نور الدين محمود التدريس في « المدرسة

الملك العادل نور الدين، وشرع معه فى أمر الحلبيين، فقرر الأمر على أن يرسل إلى الملك العادل نور الدين وينكر عليه التغاضى لما يفعله الحلبيون من الآذان والصلاة... فى الجامع، وذكر الأئمة الاثنى عشر قدام الجنايز، وقال ابن الطرسوسى أيضا للملك معين الدين صاحب دمشق: يجب أن تنكر أنت هذه الحال على نور الدين، فرد الملك معين الدين الرسالة وقال: ما أزوج بنتى لمن يفعل فى بلده كيت وكيت»[1].

ثم أوضح ابن أبى طى بعد ذلك الدور الذى لعبه ابن الطرسوسى وغيره من كبار السنّة فى حلب مع نور الدين محمود، فقال: «فرجع ابن الطرسوسى ومن كان معه فى الرسالة، وقالوا: للملك العادل نور الدين ما قاله لهم صاحب دمشق وما شنع عليهم به، وعظموا عليه الحال وهونوا عليه أمر الحلبيين وصرفهم عن ما هم عليه وضمنوا له أنه لا يتأذى بذلك ولا يخشى...، وأن الملك لا يتأثر بذلك، وحملوه إلى أن أمر منع الحلبيين من ذلك»[2].

فصدر قرار نور الدين محمود بمنع شعائر الشيعة فى عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م - كما أشرنا من قبل - وأمدنا هنا أيضا ابن أبى طى بالكثير من التفاصيل المهمة التى انفرد

بذكرها، وساعده على ذلك أن كبار أفراد أسرته كانوا شهودا عيان على تلك الأحداث، كذلك أمدنا ابن أبى طى بتفاصيل الدور الذى قام به الفقيه برهان الدين

الحلاوية» في حلب بعد أن انتهي من تجديدها في عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م، واستدعاه لذلك من دمشق، ثم ترك التدريس بها وعاد إلي دمشق وتوفي بها في شعبان عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٩٣، ٢٩٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٢٦٥، ٢٦٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٧٩؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٣٦٨).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ٢، ج ٤، ورقة ٦٣؛ C. CAHEN: op.cit, p. ٢٦٤.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ٢، ج٤، ورقة ٦٤؛ C. CAHEN: op.cit, p. ٢٦٤

البلخى فى تنفيذ هذا الأمر، وكان بعض المؤرخين قد أشار فقط إلى هذا الدور[١]، فقال: «وفيها أخذ برهان الدين البلخى فى الاشتداد فى إنكار مذهب الشيعة، وجمع نور الدين جماعة من مقدميهم واعتقلهم فى القلعة فى «برج الزيت»، وأجمع نور الدين على إيقاع المكروه بهم فراءى تلك الليلة مناما هاله فأمر بإطلاقهم، ثم.... فأمر بنفيهم وهم: «الفقيهان الصوريان» والفقيه «فضايل بن صفيل»، وهو جد أمى، والفقيه «محاسن بن ظافر»، عمى، ووالدى أبو طى النجار، وجماعة كثيرة».

ثم قال ابن أبى طى: «ولما عزموا على إخراجهم من حلب طلب «أبو عبد الله الصوري» الحضور بين يدى نور الدين، فأحضر فقال له: يا مولانا تحضر من قبلك من الفقها ويكون بيننا وبينهم مناظرة، فإن غلبنا كنت الحكم فينا، وإن غلبنا مَن علينا مولانا المولى بالمقام فى أوطانا، فامتنع من ذلك، ثم بعد ذلك جمع نور الدين جماعة من وجوه الحلبيين.... ومن يخاف عايلتهم وأرسلهم إلى الموصل وكان سبب ذلك أنهم اجتمعوا وعملوا «عاشورا» بحلب»[٢].

ثم عرض ابن أبى طى بعد ذلك مثالا لموقف أحد العامة فى حلب من الإجراءات الجديدة التى اتبعت مع الشيعة، وأوضح فيه أن آثار الشيعة الدينية فى حلب امتد إليها التخريب فى ذلك الوقت من جانب السنّة، فقال: «وأخذ فى جملتهم «على بن حبطة» وكان من جملة العامة، وكان (صنيعه يدارى) فحبس محبس «راس الدلبة» وضيق عليه، وكان سبب اعتقاله أنه كان على باب «مسجد الجرن الأصفر»[٣] حجر كبيرة عليها اسما الأئمة مكتوبة، وكان «ابن أمين الدولة» يسكن فى الدار التى شمال المسجد (ففض) باب المسجد

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ٧٩ ؛ العبر ، ج ٣ ، ص ٦ ؛ النعيمي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ؛ العماد الحنبلي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٨ .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ورقة ٩٧ ـ ٩٨ ؛ C . CAHEN : op . Cit, p. ٢٦٥ .

(٣) مسجد الجرن الأصفر : أنشأه القاضي أبو الحسن محمد بن الخشاب ، وحمل إليه الجرن الأصفر من مكان بعيد . (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص١١٣ ـ ١١٤، ١٨٨) .

واقتلع الحجر وأدخلها إلى سيقاية المسجد وجعلها تحت مجارى (النجاسة)، وعلم «ابن حبطة» بذلك فعبر ولعن ابن أمين الدولة وسبّه، فشكاه إلى نور الدين، فأمر باعتقاله وأصبح على نية صلبه فرأى عليا ـ رضى الله عنه ـ فى النوم يقول له: أخرج ابن حبطة من الحبس وإلا (كنت خصمك) فلم يخرجه وقال

: هذا (أضغان) أحلام، وعاد فرآه وقال: لابد أن تخرجه الليلة، فقام نور الدين بنفسه وأطلع من «المنظرة» المطلة على حلب، (ونادو) رئيس حلب إلى تحت المنظرة وأمره نور الدين بإخراج ابن حبطة من ليلته وأن يخلع عليه»[1].

وفى اعتقادنا أن هذه الرؤى التى أوردها ابن أبى طى فى كتاباته عن هذا الموضوع أمر مبالغ فيه لتبرير أسباب تغيير نور الدين محمود لقراراته تجاه المقبوض عليهم من الشيعة، فإذا كان نور الدين محمود يخشى رؤية «على ابن أبى طالب» ـ رضى الله عنه ـ وتؤثر عليه مثل هذه الرؤى، فلماذا أقدم على منع شعائر الشيعة فى حلب ؟ ولعل حرص نور الدين محمود على توخى العدل ـ الذى اشتهر به بعد ذلك ـ كان السبب وراء تغيير هذه القرارات، ولعل الشيعة فى ذلك الوقت كانوا بحاجة إلى حدوث معجزة من الإمام «علي» لتنقذهم مما هم فيه، ولهذا عندما تغيرت قرارات نور الدين محمود بشأن المقبوض عليهم منهم برروا ذلك بخوفه من رؤية هالته أو لرؤيته الإمام على.

ثم ختم ابن أبى طى كتاباته عن هذا الموضوع بتوضيح الدور الذى قام به الفقيه برهان الدين البلخى مع الشيعة فى حلب، فقال: «وتجرد برهان الدين البلخى الشريعة... والتجاهر بالقبايح المنكرة وأوجب على كل... قادر متمكن إنزال البأس بهم والعقاب لهم وان يجرد نفسه فى مجاهدتهم، ويوقف روحه على مقاتلتهم، وإن من لم يفعل ذلك مع القدرة فهو عاص أحكام الإسلام منكر لما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام، وجرت فى أمر هذه

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ورقة ٩٨ ؛ C.CAHEN : op . Cit ., p . ٢٦٥

المسايل خطوب عظيمة من الإمامية والإسماعيلية وأهل السنة يطول شرحها»[١].

هكذا تم تنفيذ قرار الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤) بمنع شعائر الشيعة فى حلب فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، وقد ظل نور الدين محمود على موقفه المتشدد تجاه الشيعة طوال عهده، وقد أذعن الشيعة لهذا القرار على مضض، وكانوا دائما فى حالة ترقب وانتظار فرصة مواتية للتذمر، وقد واتتهم هذه الفرصة فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م عندما أصيب نور الدين محمود بمرض كاد أن يودى بحياته، فدار حينئذ صراعا بين زعماء السنة و الشيعة فى حلب، وانتهى بنفى الكثير من زعماء الشيعة إلى حران[٢].

الظواهر الطبيعية فى عهد نور الدين محمود:

اهتم ابن أبى طى فى كتاباته برصد الظواهر الطبيعية خاصة التى حدثت فى حلب، وأثرها على المجتمع الحلبى بعد ذلك، وهذا يعكس مدى اهتمامه بذكر كافة الموضوعات المتعلقة بتاريخ حلب، وقد اعتمد فى كتاباته على روايات «والده» الذى كان شاهدا لتلك الظواهر، وقد وصلنا من كتاباته ما يوضح أثر انخفاض درجة الحرارة فى شتاء عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م على كافة جوانب الحياة فى حلب، وأيضا تفاصيل الزلزال الشديد الذى تعرضت له حلب فى شهر شوال عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م.

١ – سوء أحوال الطقس:

تولى الملك العادل نور الدين محمود حلب بعد وفاة والده أتابك زنكى فى ربيع الآخر ٥٤١ هـ / سبتمبر ١١٤٦ م[٣]، وقد انفرد ابن أبى طى بوصف نقله عن والده يوضح

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ورقة ٩٨ .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٠٩ - ١١٠ . . C . CAHEN : : op . Cit, pp. ٢٦٦-٢٦٧

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

تفاصيل الشتاء القارص الذى تعرضت له حلب فى ذلك العام، وأعطانا وصفا دقيقا لأثره على مسجد الجرن الأصفر، وعلى حركة المجتمع الحلبى، وما نتج عنه من وفيات بينهم وأيضا أثره على الحيوانات والطيور فى حلب.

قال ابن أبى طى: «حدثنى أبى قال: «كان بحلب فى هذه السنة أمطار كثيرة وجمود، حتى ارتفع «الجرن الأصفر» الذى قدام فوارة الجامع عن الأرض لشدة الجمود، ولقد «أخذنا» عصا أعمى كان فى الجامع وأدخلناها تحته، فلم يردها شئ، وجمد الما من فوق رأس الفوارة إلى أرض الجرن المدور الذى تحتها حتى صار كأنه خيمه. قال: وجمد ما.... فى حوانيت....، وتلى ذلك ثلج دام ثلاثة أيام حتى منع الناس الخروج والدخول من دورهم، وهلك بسببه عالم عظيم، وحمل الفلاحون من الغزلان والثعالب والأرانب شيئا كثيرا، وقتلوا من الوحوش شيئا كثيرا، وكان الناس يأخذون الطيور من العصافير والحمام والفواخت وغيرها قبضا بأيديهم، يقع عليهم إلى البيوت»[1].

٢ – الزلزال:

ضرب زلازل قوى كثير من البلاد الواقعة - حسب تحديد ابن الأثير - فى العراق، والموصل، والجزيرة، وكانت بلاد الشام أكثر المناطق تأثرا به فى معظم بلادها فى:

دمشق، وبعلبك، وحمص، وحماة، وشيزر، وبعرين، وحلب[2]، ووقع - كما ذكر العماد الأصفهانى - فى يوم الاثنين ثانى عشر شوال عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م، وأخذ عنه هذا التاريخ كثير من المؤرخين[3].

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ورقة ٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٦ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٦ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٤٣ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٧ .

وكانت مدينة حلب من أكثر البلاد التى خربها الزلزال، وعبر العماد الأصفهانى عن ذلك بقوله: «وكان الهم الكبير فى حلب لانهدام مبانيها»، وقال أيضا ابن الجوزى: «وقع منها نصف حلب ويقال هلك من أهلها ثمانون ألفا»، أما ابن الأثير فقد وصف آثار الزلزال فيها عند زيارة نور الدين محمود لها بقوله: «أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها.. فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ، وكانوا لا يقدرون يأوون إلى مساكنهم خوفا من الزلزلة»، وحدد ابن العديم عدد القتلى بها فقال: «وهلك من الناس ما يزيد على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى»[1].

وقد أورد ابن أبى طى خبر الزلزال، واتفق فى بداية روايته مع العماد الأصفهانى فى تاريخ وقوعه، ثم أورد وصفا لآثار الزلزال فى حلب لم يخرج عما وصفه غيره من المؤرخين، فقال: «فى يوم الاثنين ثانى عشر شوال سنة خمس وستين وخمسمائة، كانت الزلزلة التى هدمت مساكن حلب وخربت جدرانها، واتت على أكثر سكانها وسقط بهذه الزلزلة جميع أسوار حلب والقلعة، ولم تسلم بحلب إلا الدور القليلة التى كانت قريبة عهد بالعمارة، وخرج من سلم من أهل البلد إلى الصحراء، ونزلوا فى الخيم، وبقيت الزلزلة تتردد خمس وعشرين يوما، وخافت المدينة من كثرة القتلى»[2].

ثم أمدنا ابن أبى طى فى القسم الثانى من روايته بما خبره به والده عن آثار الزلزال، وفيه وصف دقيق انفرد به عن كثرة القتلى بها، فقال: «وحدثنى أبى قال: ضجر الناس

من كثرة الغسيل، والتكفين، والحفر، وكان قد «.....»[3] وهذه عظيمة، يوما، والناس ينقلون موتاهم إليها، «فوقفت» عليها مقدار ساعتين، فكان عدد من ألقى فيها فى تلك المدة التى عاينتها، مقدار مائة وستين إنسانا، وكان جماعة يحملون الموتى فى الأكياس ويلقونهم،

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٤٨ ؛ ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٣٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٦ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ (المطبوع) .

(٣) وردت هذه النقاط في نص ابن الفرات . (المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٩٥) .

ويقى الناس ينبشون الموتى من تحت الردم مدة سنة، وخربت بيوت الحلبيين، فقدا وهدما وموتا، ولا يعلم مصيبة طرقت بحلب بعد «حصار الفرنج لها»[١]، أعظم من مصيبة الزلزلة، لأنه لم يبق بحلب دار، إلا وأصيب أهلها جميعهم أو بعضهم»[٢].

(١) تعرضت حلب لحصار شديد من قبل قوات مملكة بيت المقدس الصليبية في عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وبلغت شدته أن نفذت الأقوات بها ، وأمدهم أمير الموصل آق سنقر البرسقي بكثير من الإمدادات ، وقد تناولنا تفاصيل هذا الحصار في كتابات ابن أبي طي عن حلب .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٩٥ .

obeikandl.com